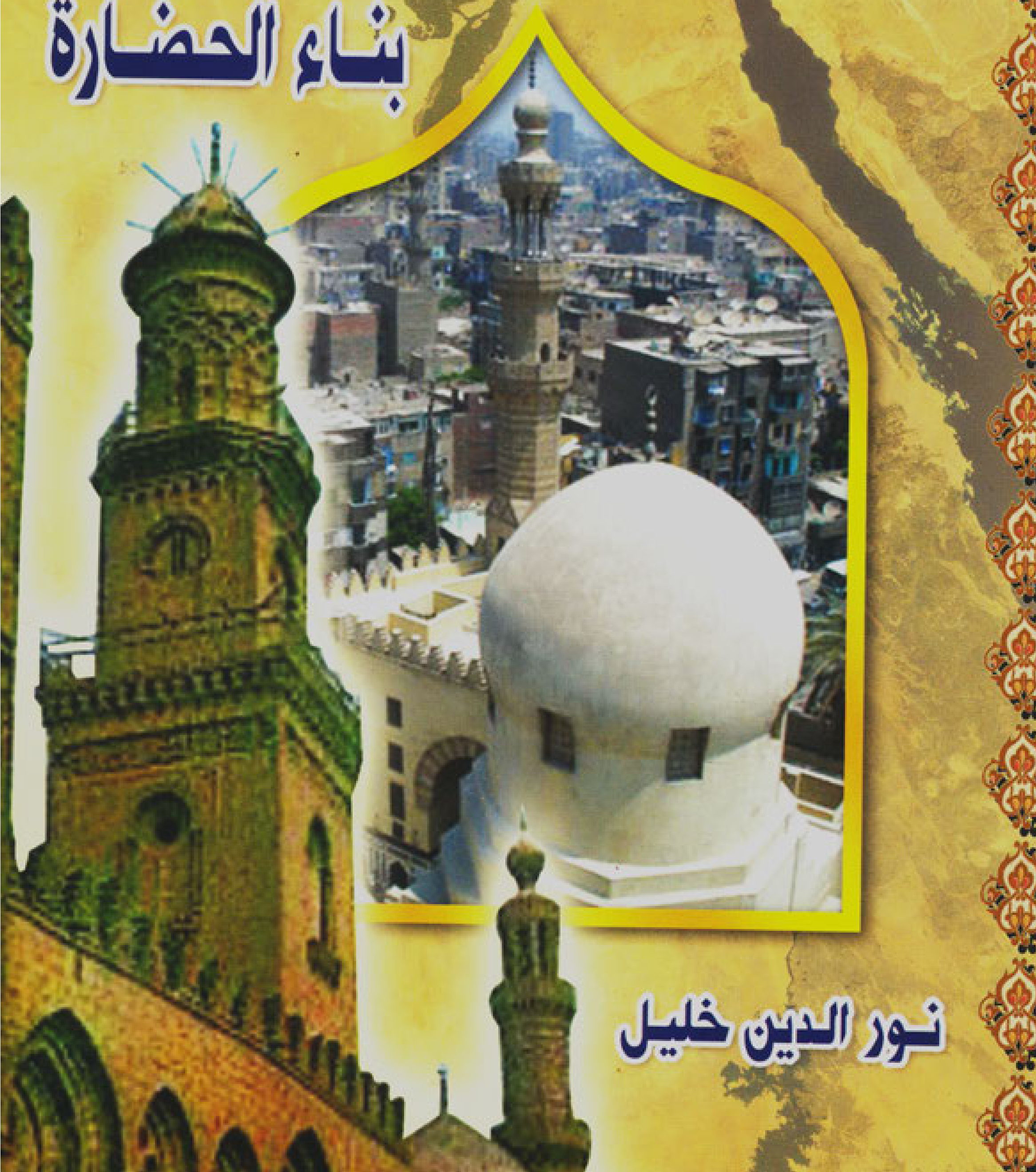
المماليك المفترى عليهم (٤)

المنصور قلاوون

بناء الحضارة



نور الدين خليل

المماليك المفترى عليهم (٤)

المنصور قلاوون

بناء الحضارة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٧/٩٢٠٦
الترقيم الدولي
I.S.B.N
977-5245-56-3

المماليك المفترى عليهم (٤)

المنصور قلاوون

بناء الحضارة

٦١٩ ـ ٦٨٩ هجرية ♣ ١٢٢٢ ـ ١٢٩٠ ميلادية

نور الدين خليل

الإهداء

إلى شهداء
المقاومة اللبنانية

تصـدير

المنصور قلاوون :

هو السلطان الملك المنصورأبو الملوك سيف الدنيا والدين قلاوون الألفى الصـالحي

ثامن سلطــان مملوكى فى الترتيب التاريخى:

٠١- السلطانة شجرة الدر	١٢٥٠م
٠٢- المعز عـزالدين أيبـك	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- المنصـور علـى نورالدين (بن أيبك)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- المظـفـر سيف الدين قطـز	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- الظـاهرركن الدين بيبرس الأول البندقدارى	١٢٦٠- ١٢٧٧م
٠٦- السعيد بركة خان (بن الظاهر بيبرس)	١٢٧٧- ١٢٧٩م
٠٧- العادل بدرالدين سلامش (بن الظـاهربيبرس)	١٢٧٩م
٠٨- المنصـور سيف الدين قلاوون الألفى	١٢٧٩- ١٢٩٠م

♣ رابع المماليك العظام بعد شجرة الدر وقطز وبيبرس .

♣ سلطان عظيم ، وجواد كريم ، وسياسى حكيم .

♣ محـارب مقدام مغوار، فاتح الحصـون والأمصـار .

♣ تحدث الناس بأن قلاوون يكسر هلاوون .

مع صليل السيوف وصيد الحتوف ، أقام العمارة وغرس الحضارة .

♣ ملك كأن البحـر جـود يمينـــه وكأن نورالشمس ضوء جبينـــه

♣ كم نعمة للخلق فى تمكيـــــنه وعنـــاية للحـق فــى تعيينــــنه

♣ كم قالت الأقـدار هذا فاتح الـ أمصـار زاد اللـــه فى تمكيـــنه

♣ هذا قلاوون منه بيت هلاوون سيبـيد من سكـــانه وســـكونه

المنصور قلاوون

٦١٩ ـ ٦٨٩ هجريــة ١٢٢٢ ـ ١٢٩٠ ميلادية

مقـدمـــة

هذا هو المملوك الرابع فى مسيرة المماليك العظام المفترى عليهم ، بعد أن سبقه ثلاثة من هؤلاء المماليك العظـام : شجرة الدر التي قهرت الملك لويس ملك فرنسا وأسرتــه وأنقذت مصـر ، والمظفر قطــز الذي قهر جحافل المغول وأوقف سيلهم فى عين جالوت ، والظاهر بيبرس الذي غرس الرعب في قلوب الصليبيين .

ولقد جاء المماليك فى هذه السلسلة على التعاقب ، الأمر الذي ييسّـر معالجة هذه الحقبة من تاريخ مصر والشام ، فضلا عن السرد التاريخى للأحداث الجسام التى صاحبت كل مملوك على حده من هؤلاء المماليك المفترى عليهم . وإذن تكتمل الصـورة، ويتضح الهدف من هذه السلسلة التى ربما كانت الأولى على طريق الإنصـاف الواجب لمن سعوا سعيهم للذود عن الإسلام والعروبة ، وأمضوا جُل حياتهم فى البذل والعطاء على درب بناء الحضارة والإرتقاء بالإنسان .

ولا بأس من مصاحبة القارئ النجيب فى إطلالـة عاجلة موجزة على ما صـدر للمماليك الثلاثـة ، خاصـة وأن الأخطـار التـى أحاطـت بمصـر والشـام ، بل وبالإسلام كله ، كانت من الجسامة بحيث شارك رواد المماليك العظام فـى دفعها والقضاء عليها .

(١) <u>شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر</u> :

يسرد الكتـاب نهاية الأسرة الأيوبيــة وأفول نجمهـا فـى مصر بوفـاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وما نشأ من خلافات وصراعات فيما بين العائلة الأيوبية بين أبناء الجيل الذي أعقـب وفاة صلاح الدين الأيوبى الذي كسر شوكة الصليبيين فى الشرق بانتصاره الباهر فى حطين .

كما يفصـل الكتـاب رحلة الملك لويس التاسع الفرنسى فى حملتـه الصليبية والإستيلاء على دمياط ، وتقدّمه حتى مشارف المنصورة وهزيمتة وأسره هو نفسه

مع جيشه الضخم . ويرد فى الكتاب مواقف شجرة الدر من تكتم وفاة زوجها نجم الدين ايوب ، وعبقريتها فى إدارة دفة القتال حتى النصر الأمر الذي دفع المماليك الى رفعها إلى سدة الحكم وبذا أصبحت أول سلاطين المماليك وأول امرأة تحكم بلدا إسلاميا ، ثم تنازلها عن عرش السلطنة بعد اعتراض الخليفة العباسي ، واقترانها بزعيم المماليك المعز عز الدين أيبك . ويتناول الكتاب ما ذكره المؤرخون من مأساة مقتلها هى وزوجها أيبك فى ظروف غامضة. ويستعرض الكتاب آراء المؤرخين الغربيين على اختلاف توجهاتهم . ويأتي فى ختام الكتاب فصل موجّه الى المؤرخين العرب عنوانه "تساؤلات" ، يحتوى على الأدلة التى تؤكد تبرئة شجرة الدر من جريمة قتل زوجها .

(٢) سيف الدين قطز قاهر المغول :

يرد فى ثنايا الكتاب حديث عن حضارة الجلادين ، وحضارة جلادى القرن العشرين ، ومولد جنكيز خان ، ونشأة الإمبراطورية المغولية ، ثم يمضي مع جحافل المغول فى مسيرتهم الوحشية باتجاه الغرب حتى دخول هولاكو بغداد وتدميرها وقتل الخليفة العباسى المستعصم والزحف على سوريا ، والرسائل المتبادلة بين هولاكو وعواهل الأمصار وخاصة الرسالة المهينة التي أرسلها إلى سلطان مصر سيف الدين قطز. ويكشف الكتاب كذلك ما اتصف به قطزمن حكمة فى تحييد حلفاء المغول من الصليبيين والإعداد للمعركة وتحقيق النصر فى معركة عين جالوت وقد أوشك الجيش الإسلامى على الهزيمة لولا صيحة قطز الشهيرة (وا إسلاماه) . ومطاردة فلول المغول فى الشام ومأساة مقتله فى طريق العودة الى مصر . وفى محاولة لتخفيف ما أشيع عن غدر الظاهر بيبرس ، يتناول الكتاب ظاهرة الإغتيالات التى ارتكبت على مدى التاريخ . ويرد فى نهاية الكتاب فصل كامل بعنوان " نظرات" يكشف خبايا وأسرار الإنتصارات المغولية حتى عين جالوت ، وتناول الكتاب كذلك ما تركته تلك الغزوات من آثار مدمرة خاصة اختلال جغرافيا التوزيع السكاني فى البلدان الآسيوية ، والخطر الذى أحدق بالحضارة الإسلامية ، بل بالإنسانية على عمومها . هذا فضلا عن الرسائل الكثيرة التى أوردها المؤرخون بين مختلف عواهل وحكام ذلك الزمان .

(٣) الظاهر بيبرس ، رعب الصليبيين :

يكاد يجمع النقاد على أن بيبرس هوالمؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام ، والرجل الذي انتزع اهتمام المؤرخين كافة، حتى قارن بعضهم إنجازاته بإنجازات صلاح الدين الأيوبى . وهو الرجل الذي صارت سيرته على كل لسان شرقا وغربا فهابه الملوك والعواهل حتى لاذ أعداؤه به يحتمون بقوته وبأسه ، وأحبه عامة الناس فتغنوا بسيرته إلى اليوم . وهو المسلم الحق الذي خطى الخطوات الأولى فى نشر الثقافة وإقامة المكتبات والمدارس. وهو الذي قيل فيه :

تدبّر الملك من مصر إلى يمن　　　إلى العراق وأرض الروم والنوبى

ولا يقتصر كتاب الظاهر بيبرس هذا على سيرته وحسب ، وإنما يتناول المسألة الغائبة ، ألا وهى مسألة عبودية المماليك ، هل هم فعلا مماليك عبيد ؟ وهل ولدوا جميعا ونشأوا فى أصفاد العبودية ؟ أم كان إطلاق لفظ المماليك من عثرات الإنسان وغفلته ، بعد أن أقبل الأغنياء على شراء الآدميين فى محاولة لإرجاع عقارب الساعة الى الوراء ؟ سواء فى الشرق أو فى أرجاء العالم الأخري .

(٤) المنصور قلاوون ... بناء الحضارة:

وهذا هو الكتاب الرابع في سلسلة المماليك المفترى عليهم ، ولسوف يجد فيه القارئ سيرة هذا السلطان العظيم الذي انفرد بالحرص على إعادة غرس بذور الحضارة الإنسانية فى مصر والشرق دون أن يغفل عن صد الغزوات المغولية ، ومحاربة الصليبيين وانتزاع شتي المدن والحصون من بين أيديهم ، وهو الذي انفرد كذلك بإنشاء أسرة حاكمة تعاقبت فيها ذريته طوال مائة عام ، حتي أطلق عليه لقب أبو الملوك.

والحضارة كما جاء تعريفها بالمعاجم هى "حالة مثالية للثقافة الإنسانية تخلو تماما من البربرية والسلوك غير الرشيد ، وتستخدم على نحو أمثل الموارد الإنسانية والروحانية والثقافية والبدنية ، وتسعى إلى كامل تكيف الفرد فى الإطار الإجتماعى."

وعلى ذلك فاحضارة ليست شيئا مجسدا ملموسا تلمسه الأيدي وتقلبه وتتفحصه ، ومن الأخطاء الشائعة أن يتفوّه البعض بلفظيّ "الحضارة الغربية " منخدعين بناطحات السحاب مثلا أو بالمخترعات الإليكترونية الحديثة ، أو غير ذلك مما يسمى بحق "القشرة الحضارية المادية " . فليس من الحالات المثالية للثقافة الإنسانية القاء أطنان القنابل على المدن وسكانها فى العراق وأفغانستان ، وتجويع الشعب الفلسطيني من قبل الدول الغربية ، والتنكيل بالإنسان فى فييت نام ، وما تمارسه الصهيونية الإسرائيلية من اغتيال الفلسطينيين بصفة يومية وهدم منازلهم ، وما لطّخته فرنسا وانجلترا والبرتغال ودول غربية أخري من تاريخ أسود فى مستعمراتها فى الهند الصينية والجزائر والمغرب وأنجولا وباقى المستعمرات ، ناهيك بإلقاء القنابل الذرية على مدن بأكملها فى اليابان . لاسبيل إلى إطلاق لفظ الحضارة على الجرائم الأمريكية، وصدق من قال عنها "إن أمريكا قفزت من البربرية إلى التكنولوجيا دون أن تمر بالحضارة !!!

والمنصور قلاوون مثل متجسد من صنّاع الحضارة فى ركب البشرية . والمماليك الثلاثة الذين سبقوه تركوا بصماتهم فى ضرب اروع مثل فى سبيل الذود عن الأوطان والتصدي للأعادي من الصليبيين والمغول . وكذلك فعل قلاوون كما سنري ، لكنه أضاف اللمسة الحضارية بأبعادها المختلفة المؤثرة فى عامة الناس ألا وهي التعليم، والرعاية الصحية ، ورعاية الإسلام وأتباعه. ولا ننسى أن محاربة المستعمرين الغاصبين وإعادة الأرض الى أصحابها من أساسيات التصرف الحضاري .

وعلى ذلك ، سوف نري كيف أنشأ المدارس ، وبادر بإنشاء المستشفى التي تحمل إسمه حتى بعد ما يقرب من ألف سنة ، وسنري كفاحه وتفانيه فى الإهتمام بعمارة المباني والمساجد ، ليس فقط فى داخل مملكته ، وإنما أيضا خارجها فى المسجد النبوى الشريف .

ونبقى كلمة فى هذه المقدمــــة العاجلــــة ، نركز عليها ونهتم بها ونشدد على لفت الأنظار إليها . ألا وهي اتخاذ جانب الحذر من معاول الهدم التي ينشط أصحابها إما بدوافع الجهل ، أو بدوافع الولاء للغرب المستعمرالخادع المتربص . ويرد المثل على ذلك فى نهاية هذا الكتاب فى المقال المعنون "معاول الهدم" .

ونسأل الله سبحانـــه وتعالى أن يوفقنـــا جميعـــا الى ما يحبه ويرضاه .

نورالدين خليـــــل

الإسكندرية فى ربيع الأول ١٤٢٧ هـ

الموافق شهر إبريـــــــــل ٢٠٠٦ م

♣♣♣♣♣

الفصل الأول

قـــلاوون
قبل توليه السلـطنـة

- من هــو قلاوون ؟
- السنوات الأولــى
- قلاوون والظاهــر بيبرس

١ ـ في معركـة المنصورة

٢ ـ في قمع التمرد على المعز أيبك

٣ ـ الهروب إلى الشـــام

٤ ـ العودة الى مصر وحسن البلاء في عين جالوت

٥ ـ على طريق الإعمــار

٦ ـ الزواج والمصاهرة

٧ ـ في كيليكيا (جنوب تركيا)

٨ ـ في فتح أنطاكيـــة

- قلاوون وأولاد الظاهر بيبرس

(١) الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس

(٢) الملك العادل بدرالدين سلاميش بن الظاهر بيبرس

(٣) المسعود نجم الدين خضربن الظاهر بيبرس

- قلاوون وشمس الدين سنقر الأشــقر

♣♣♣♣♣♣

ــ من هــو قلاوون ؟

كان قلاوون من مماليك الملك الصالح . وكان الذي اشتراه قد دفع ألف دينار ذهبى ثمنا له ، وعرف منذ آنذاك بلقب "الرجل الألفى" . وكان من الكبجاك كذلك ، وقيل إنه كان وسيما . وحدث أن مات أحد أبنائه ، الملك الصالح ، بالدوسنتاريا ، وتقطع قلب قلاوون على ابنه ، فأمر أفراد بلاطه بالحداد ، فلا يغير أحد ملابسه ولا أن يقصّر شعر رأسه إلى أن يسمح قلاوون بذلك .

"وفيها (أي فى هذه السنة ٦٨٧ هـ) اتفق وفاة السلطان الملك الصالح علاء الدين على ولد السلطان الشهيد وبكره (يعنى ابن قلاوون البكر)، بمرض الدوسنطاريا ، فحزن لفقده حزنا عظيما، ووجد لرزئه ألما أليما، لأنه كان محببا للقلوب ، سالكا من الأخلاق الملوكية خير أسلوب وخلف ولدا واحدا ذكرا وهو الأمير مظفر الدين موسى . وفيها أيضا توفيت الست غازية خاتون ابنة السلطان التى كانت زوجة الملك السعيد . "

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية ،ص ١١٩)
(تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ ــ ٧١١ هـ)
(تأليف بيبرس المنصوري، تحقيق د.عبد الحميد حمدان)

♣♣♣♣♣♣

"وفي شعبان من هذه السنة (٦٨٧ هـ) توفي الملك الصالح ولد السلطان ، وكان اسمه علاء الدين على ، وامه ابنة كرمون التى ذكرنا أن السلطان بنى بها وهو أمير فى الدولة الظاهرية ، وخلف الملك الصالح المذكورولدا يسمي مظفر الدين موسى، فأسى عليه السلطان أسى عظيما ، ووجد بفقده وجدا جسيما ، وكان كامل الأدوات ، حقيقا بأسباب الرياسات ."

(مختارالأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية)
(حتى سنة ٧٠٢ هـ ، ص ٨٦)
(تأليف بيبرس المنصورى ، تحقيق د. عبد الحميد حمدان)

وقد سارقلاوون ، الذي أنشأ أسرة حاكمة استمرت مائة سنة ، على درب سياسة بيبرس . فقد أوقف غارات المغول والصليبيين وبذا كفى العالم العربى شرورهم ، وعقد المعاهدات مع الإمبراطور رودولف الهابسبرجى *Rudolph of Hapsburg* ومع غيره من الأمراء الأوروبيين . وواصل بناء الحضارة الذي بدأه بيبرس ، فأنشأ مستشفى ومسجدا وضريحا لا تزال كلها باقية فى القاهرة ، تقف شامخة شاهدة على فن هندسة العمارة المملوكية. وهو المجمع الذي بناه فيما بين عامى ١٢٨٤م و ١٢٨٥م (شارع المعزّ). واستجلب قلاوون مماليك الشراكسة بدلا من المماليك الأتراك ، وخصص لهم مكان إقامة فى البرج الدائرى الضخم فى القلعة.

ــ السنوات الأولــى

يحدثنا المؤرخون أن قلاوون ولد سنة ٦١٩ هجرية / ١٢٢٢ ميلادية ، وكشأن المماليك عموما ، لا نعرف شيئا عن طفولته ولا عن نشأته فى موطنه الأصلى فى شمال البحر الأسود أو القوقاز حيث كان يعيش أتراك الكيبشاك .

كما نعرف من المؤرخين أنه أصبح مملوكا فى سنة ٦٣٧هجرية / ١٢٤٠م ، أو نحوها ، أي وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وعلى ذلك فأغلب الظن أنه وقع أسيرا فى إحدى المعارك وهو شاب يافع ثم أبعده النخاسون حيث عرض للبيع فى أراضى المملكة الأيوبيــة ، واشتراه أحد أفراد عائلة السلطان الكامل .

ولقد شاهده الأمير علاء الدين أقسنقر، وقرأ فى سمات وجهه النجابة والعزم وحدة الذهن ، أعجب به وعزم على شرائــه مهما زايد المزايدون ، إلى أن بلغ ثمنه ألف دينار ذهبى ، فاشتراه بألف دينـار ، ومن هنـا سمى بقلاوون الألفـى . ولما توفى الأمير علاء الدين ، انتقل قلاوون الألفى إلى مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث تعرف على بيبرس وسادت بينهمـا ألفــة ومودة . ونشأت علاقة قوية بين الرجلين وصارا صنوين متلازمين أو أخوين متحابين ، وسرعان ما تحلقت حولهما حلقة من أقرانهما ، قطز وأقطـاي وأيبـك وغيرهم .

وعلمنا أن بيبرس ولد فى نفس السنة التى ولد فيها قلاوون ، أو ربما فى السنة التالية ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م أو ١٢٢٣م . كما علمنا أن موطن بيبرس الأصلى هو أيضا شمال البحر الأسود ، ومن أتراك الكبشاك .

كما علمنا أن بيبرس وقع أسيرا فى عام ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠م لدى أمراء الحرب المغول الذين غزوا أراضى الأتراك الكيبشاك ، وأخذ إلى مصر حيث بيع وأصبح مملوكا من مماليك الملك الصالح السلطان نجم الدين أيوب . وعلى ذلك ، ومن استقراء الأحداث التى حدثت فيما بعد فى أيام سلطنة الظاهر بيبرس ، فإننـا نميل إلى تصور وقوع قلاوون فى الأسر مع بيبرس لدى أمراء الحرب المغول ، وربما فى معركة أخرى ، وإنما المحقق أنهما ولدا فى موطن واحد ، وفى سنة واحدة، وأصبحا مملوكين فى نفس العام ، وصار كلاهما من مماليك نجم الدين أيوب .

ـ قـلاوون والظاهر بيبرس

١ ـ في معركـة المنصورة :

مـر بنـا فـي الكتـب الثلاثـة السـابقة مـن سلسـلة المماليك المفترى عليهم كيـف ظهرت عبقرية بيبرس العسكرية في المنصـورة عندما أعـاد تنظيم فلول المماليك الفارين الذين سلموا له قيادة المعركـة مـع فرسـان الملـك لـويس الذين كـانوا يطـاردون المماليك الفـارين حتـى المنصـورة . ولا بـأس مـن سـرد تلـك الواقعـة هنـا مـرة أخـرى لنعرف مدى العبقرية العسكرية والشجاعة التي امتاز بهما بيبرس ، والأثر الذي تركه على قلاوون:

> استولى روبرت كونت أرتـوا (وهـو أخـو الملك لـويس التاسع الفرنسي) على معسكر المصـريين وبـات سيـده بـلا منـازع ، وقرر المضى قدما لإحتلال المنصـورة والقضـاء على الجيش المصـري، وترجـاه قـادة نظـام فرسـان المعبـد وكذلك وليم أوف سـالزبري ، أن ينتظـر وأن يأخـذ جانـب الحيطة إلى أن يأتي الملك والجيش الرئيسي إلى المخاضـة للإنضمام إليه ، بيد أنه ضرب بتوسلاتهم عرض الحائط ، بـل رمـى فرسـان المعبـد والإنجليـز بأوصـاف مخزيـة واتهمهـم بـالجبن ، وركـب رأسـه مصـراً علـى التقـدم للإستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصري.
>
> وبعد أن أعـاد روبـرت كونـت أرتـوا تنظـيم صـفوف رجالـه، شـن هجومـا جديـدا علـى المصـريين الذين كـانوا يلوذون بالفرار، ومرة أخرى لـم يجد قـادة فرسـان المعبد والقادة الإنجليز بدا مـن اللحـاق بـه. علـى أنـه بـرغم مقتل فخرالدين (قائد الجيش المصـري) استطـاع قـادة المماليك إعادة النظام بين رجالهم ، وتولى القيادة أكثرهم اقتدارا ،

وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، ووضع رجاله فى مواقع حساسة داخل مدينة المنصورة ذاتها ، وأمر بترك بوابة المدينة مفتوحة. وهجم فرسان الفرنج على المدينة وتدفقوا داخلها عبر البوابة المفتوحة ، وتقدموا إلى أسوار القلعة ذاتها وفى ذيلهم فرسان المعبد ، وعندئذ خرج المماليك من الشوارع الجانبية الضيقة وانقضوا عليهم كالصواعق ، ولم تتمكن جياد الفرنج من الإستدارة فى شوارع المدينة الضيقة وسرعان ما تبعثروا فى فوضى عارمة ، وتمكن فرسان قليلون من الهرب على أقدامهم إلى ضفاف النيل حيث غرقوا في مياهه ، بينما تمكن عدد آخر قليل من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، واشتبك فرسان المعبد فى قتال الشوارع ، ولم يبق على قيد الحياة من عددهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . وهرب كونت أرتوا مع حرسه الخاص واختفى فى أحد المنازل لكن المصريين سرعان ما اقتحموا عليهم المنزل وقتلوهم عن آخرهم . وكان من بين قتلى الفرسان فى المعركة إيرل سالزبرى وأتباعه الإنجليز كلهم تقريبا ، وكان بطرس البريتونى معهم فى المقدمة وأصيب بجرح فى رأسه لكنه تمكن من الفرار من المدينة على ظهر جواد وأسرع عائدا ينذر الملك .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبيــة)

(للمؤرخ استيفن رانسيمان ، ج ٣ ص ٣١٨-٣١٩)

ولم تكن تلك الخطة أن تنجح ، ولا أن يتحقق النصر فى نهاية الأمر دون الإعتماد على باقى المماليك ، خاصة رفاق بيبرس ، وعلى رأسهم قلاوون وأقطاي ، وحسن اختيارقادة الفرق ، وهذا ما يحدث فى كافة المعارك التى تخوضها الجيوش ، برغم أن المماليك المنتصرين على فرسان لويس التاسع فى المنصورة كانوا مجرد فلول جند لاذوا بالفرار وكانوا يفتقرون إلى ما تتصف به الجيوش من عتاد وتنظيم وتخطيط .

٢ ـــ فى قمع التمرد على المعز أيبك :

ومضى الرجلان على درب الصحبة والوفاء . وعاصرا شجرة الدر سلطانة ثم زوجة المعز عزالدين أيبك ، الذي حكم مصر قرابة سبع سنوات ، بدأها سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وأظهر فيها ضروب البأس والغدر، إذ كان الأمير فارس الدين أقطاي الصالحى زعيم المماليك البحرية ، قد انطلق لمحاربة الملك القادم من دمشق ، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، وهزم جماعة المماليك التى انضمت إلى الناصر الأيوبى ، وانتصر فارس الدين أقطاي وشتت الجمع وأسر الكثير.

وفي سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م تمرد العربان فى الصعيد على المعز أيبك ، فأرسل إليهم بيبرس وقلاوون وكسرا شوكتهم .

٣ ـــ الهروب إلى الشــام:

وفى العام التالى ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ، ظهرت على فارس الدين أقطاي مظاهر الإعتداد بالنفس ، إذ كان قد اعتاد على أن تصاحبه حاشيــة كبيرة تسير بين يديه ، وتحيط به آيات الإمارة ، وكثيرا ما كان يخاطب السلطان المعز عز الدين أيبك باسمه مجردا 'أيبــك' .

"واستفحل أمر الأمير فارس الدين أقطاي الصالحى استفحالا عظيما ، وقويت شوكته ، وانحازت إليه البحرية ، وأخذ لنفسه ثغر الإسكندرية ، وكان ينعم بالأموال الكثيرة ، ويعطى العطايا الغزيرة ، ويأمرعلى المعز فى مقاصده فلا يقدرعلى خلافه، وأرسل يخطب إلى صاحب حماه ابنته ، والمعز يسر ذلك فى نفسه .

ودخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، وعزم على إعدامه ، فاتفق مع بطانته على اخترامه (يعنى قتله) واستدعاه الى القلعة ، ففيها الصرعة ، ولما شاع الخبر بقتله ضاق بخشداشيته الفضاء ، ونزل بهم القضاء ، وتيقنوا التلف، وتآسفوا ولا يجدى الأسف ، فأجمعوا على التوجه الى الشام ، ...... فخرجوا ليلا من القاهرة ، وكان فيهم من الأعيان ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفى والأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بيسرى وغيرهم ... "

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية ــ ص ٣٤ و ٣٥)
(تأليف بيبرس المنصورى)

٤ ــ العودة الى مصر وحسن البلاء فى عين جالوت:

وفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م تولى المظفر قطز سلطنة مصر بعد مصرع المعز عز الدين أيبك وخلع ابنه نورالدين على. وكان هولاكو قد اجتاح العراق وسوريا وأرسل إلى قطز رسالة مهينة طالبا الإستسلام . وكان قطز قد استدعى

بيبرس وقلاوون وباقى أمراء المماليك الفارين من أيبك للعودة الى مصر والإستعداد لملاقاة المغول الذين يتهددون البلاد . فجاء بيبرس وقلاوون ورفاقهم الى مصروانضموا إلى سيف الدين قطز وشرعوا فى الإستعداد لملاقاة المغول . وأبلى بيبرس وقلاوون وباقى المماليك أحسن البلاء فى معركة عين جالوت التاريخية الشهيرة التى قادها السلطان قطز وحطموا فيها ذلك العدو الشرس الذي لم يقو أحد على التصدى له وهزيمته .

٥ ـــ على طريق الإعمار

ولا تقتصر العلاقة الحميمة بين بيبرس وقلاوون على المعارك العسكرية والقتال ، وإنما تمتد لتشمل باقى الأنشطة المدنية من إعمار البلاد ونشر المدارس والإهتمام بالزراعة والتجارة والإقتصاد . ومن الأمثلة على ذلك ما يلى :

"... وأنشأ قناطر على جسر شبرامنت بالجيزية ، وهو جسر عظيم يتراكم الأمواه عليه ، وكان كثيرا ما ينقطع ، فحصل بهذه القناطر النفع . وأمر بعمارة مشهد بعين جالوت ، موضع المصاف مع التتار ، وسماه مشهد النصر . واهتم بعمارة أسوار ثغر الإسكندرية وخندقها . وبنى لثغررشيد مرقبا لكشف البحر المالح وما يتخلله من مراكب العدو . وأمر أن يرتب فيه ديادبة لذلك . وكان قد انهدم من منارة الإسكندرية جانب ، فبناه وشيّده، وأمر بأن يضيّق فم بحر دمياط ، فضيق بالقرابيص (الحجارة) التى هدمت من سورها ، وصارت تمنع المراكب الفرنجية من الدخول . وبلغه أن فم بحر أشموم قد كاد يستّد بما طرحه البحر عليه

من الطين ، فتوجه السلطان بنفسه وصحبته العساكر ، وحفره ورتب فيه قلاوون الألفي . ... "

(مختار الأخبار)
(تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ، ص ٢٣)
(تأليف بيبرس المنصوري)

٦ ـ الزواج والمصاهرة :

وفى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م ، تزوج قلاوون من بنت الأمير سيف الدين كرمون . وكما يخبرنا المؤرخ بيبرس المنصورى المعاصر لبيبرس وقلاوون :

"ودخلت سنة أربع وستين وستمائة ، وفي هذه السنة بنى الشهيد المرحوم (قلاوون) قدس الله روحه على بنت الأمير سيف الدين كرمون الذي ذكرنا وفوده فى السنة الخالية ، ولما عقد العقد كان يوما مشهودا وضرب الدهليز السلطانى فى سوق الخيل ، وحضر السلطان والأكابر ، وقدمت للمخدوم (يعنى قلاوون) التقادم (يعنى الهدايا) .. "

وفضلا عن حضور السلطان الظاهر بيبرس حفل زواج زميله ورفيق كفاحه الأمير قلاوون ، حدثع المصاهرة المباشرة بزواج الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس من ابنة الأمير سيف الدين قلاوون :

وفى ثاني عشر ذي الحجة ، تزوج الملك السعيد ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفى . وكان العقد بالقلعة . وفى حال انقضاء العقد المذكور ركب السلطان وتوجه الى الكرك ..."

(المرجع السابق ، ص ٥٦)

٧ ـ فى كيليكيا (جنوب تركيا)

وأثناء أن كان بيبرس يتجول بحملاته فى الجليل ، تجمع فى حمص الجيش المملوكى الثانى بقيادة أقدر الأمراء ، قلاوون الذى أغار على حصنى قوليا وحَلبا ومدينة أرقا التى تتحكم فى مدخل طرابلس من البقاع ، ثم اتجه شمالا ليلحق بجيش المنصور صاحب حماة . وسارجيشاهما المتحدان إلى حلب وانحرفا غربا إلى داخل كيليكيا . وكان الملك الأرمينى هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا ، وكان قد حاول فى سنة ١٢٦٥م على أثر موت هولاكو أن يتصالح مع بيبرس ، وكانت البحرية المصرية تعتمد فى بناء سفنها على أخشاب جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، فكانا يأملان فى استغلال تلك الغابات كورقة تفاوض . وفى عام ١٢٦٦م علم هيثوم بأن هناك هجوما مملوكيا وشيكا ، فذهب إلى بلاط الخان المغولى فى تبريز يستجدى مساعدة المغول . وعندئذ اندلع القتال فى كيليكيا. وكان يقود الجيش الأرمينى إبنا هيثوم ، ليو وثوروس ، وانتظر الجيش الأرمينى عند البوابات السورية بينما كان فرسان المعبد فى بجراس يحرسون جناحيه. بيد أن المماليك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس ، فسارع الأرمن لإعتراض طريقهم أثناء هبوطهم فى السهل الكيليكى ، ونشبت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦م قرب دربساك هلك فيها الجيش الأرمينى أمام الأعداد الغفيرة ، وقتل ثوروس ابن الملك هيثوم ، وأسر الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا . وأثناء أن كان قلاوون وأمراؤه المماليك ينهبون ميناء أياس وأضنا وطرسوس ، قـــاد

المنصور صاحب حماه جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نهب القصر وحرق الكتدرائية. وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ومعهم آلاف الأسري وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، فقط ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرأ المملكة الكيليكية من تلك الكارثة قط ، ولم تعد قادرة على أن تلعب أكثر من دور سلبي في سياسات آسيا .

وحاول هيثوم استرداد ابنه الأسير من بيبرس ، ولم يفلح في ذلك إلا بعد أن تخلى للسلطان عن عدة مراكز هامة من بينها دربساك ومرزبان ورعبان ، وكلها تتحكم في طرق المواصلات بين أرمينيا وبلاد الشام والعراق .

٨ ـ فتح أنطاكية

في عام ٦٦٦هـ خرج الظاهر بيبرس على رأس الجيوش لمواصلة تحرير المدن والقلاع من الصليبيين :

"... فلما سمع صاحب صافينا وانطرطوس بما نال طرابلس من العكوس ، سارعوا الى الخدمة ، وبادروا بإرسال التقدمة ، وتلقوا العساكر بالإقامة . وأحضروا من كان عندهم من أسراء المسلمين ، فكانت عدتهم ثلاثمائة أسير. ورحل السلطان إلى حمص ومنها الى حماة قاصدا أنطاكية. إذ كانت مدينتهم العظمي، وكحلهم الأسمي. ولما بلغ حماة ، فرق العساكر ثلاث فرقات لتكون إحاطتهم بالمدينة من كل الجهات. ففرقة صيرها معه ، وفرقة مع المخدوم (يعني قلاوون)، وفرقة مع الأمير عزالدين يوغان الكني . فلما سرنا صابحنا القصير صباحا، فناوشنا

أهلـه القتـال إرهابـا لهـم . ووصـلنا أنطاكيـة ، وترادفـت العساكر أطلابا وأبطالا ، وتواترت خيلا ورجالا ..."

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية ــ ص ٦٢)

(تأليف بيبرس المنصورى)

وهكذا فإن سيف الدين قلاوون أهلته مواهبه وملكاته لأن يبرز على الساحة في الفترة التي خرجت فيها دولة المماليك البحرية إلى الوجود، ولمع في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي أولاه ثقته ؛ لرجاحة عقله وشجاعته ، وتصاهرا ؛ حيث تزوج بركة خان بن السلطان بيبرس من ابنة قلاوون؛ تأكيدًا على روح المحبة والصداقة بينهما.

قلاوون وأولاد الظاهر بيبرس

ما فتئ المؤرخون ، الغربيون منهم خاصة ، يزعمون أن قلاوون وثب على عرش السلطنة وانتزعه من أولاد الظاهر بيبرس فى حركة غادرة تفتقر الى الأمانة لوالدهم الذي كان صديقه ورفيقه فى مسيرتهما الطويلة ، بل وصهره .

على أننا لا نأخذ بتلك الأقاويل ، وليس كل ما يقال يؤخذ على أنه حقيقة مسلم بها ، حتى ولو قيل على لسان مؤرخ شهير ، وإنما اخترنا أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث وهو "بيبرس المنصوري " المتوفى سنة ٧٢٥ هـ ، والذي كان يشغل منصب نائب السلطنة فى مصر ، وذلك فى تاريخيه : مختار الأخبار ــ تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هجرية ــ (تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان) . و التحفة الملوكية فى الدولة التركية ــ تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ إلى ٧١١ هجرية ــ وليس من رأي كمن سمع ولم ير.

(١) الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس

مات الظاهر بيبرس فى ظروف غامضة اختلف حولها المؤرخون ، وفيما يلى موجز للآراء المختلفة التي قيلت فى مناسبة وفاته :

لم يعش بيبرس طويلا بعد مغامرته فى الأناضول . وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فا ستنادا إلى بعض المؤرخين مات متأثرا بجراحاته التى أصيب بها في حملته الأخيرة ؛ واستنادا إلى البعض الآخر أفرط فى شراب القُمّز، وهو لبن الفرسة المخمّر الذي يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هى أنه أعد القمز المسموم للأمير الأيوبى صاحب الكرك ، القاهربن الناصر داود ، الذى كان مع جيشه ، والذي كان قد أساء إليه ، ثم شرب بإهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات في شهرالمحرم سنة ٦٧٦ هـ الموافق أول يوليو ١٢٧٧م.

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(ج ٣، ص ٤٠١ للسير ستيفن رانسيمان)

وأخفي الخازندارالأمير بدر الدين بيليك نبأ موتــه ودفن فى دمشق، وأشاع أنه مريض ويتعين العودة به إلى مصر ، وجمع العساكر يحيطون بمحفـة ادعى أن بيبرس بداخلها بينما الأطباء فى جيئة وذهوب بالأدوية الى تلك المحفة يحملون الأدوية وأدواتهم الطبية ، إيهاما بأنهم يعالجون السلطان المريض ، إلى أن وصل الركب إلى مصر.

وجمع بدر الدين بيليك الأمراء واتفقوا جميعا على أن يجلس الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس على عرش السلطنة ، وأن يتولى الأمير بدر الدين بيليك الخازندارمنصب نائب السلطنة ، واستمر الحال على ذلك عدة أشهر.

وسرعان ما توفي نائب السلطنة الأمير بدر الدين بيليك بعد مرض ألم به . وتولى منصب نائب السلطنة بعده الأمير شمس الدين أستاذ الدار المعروف بالفارقاني ، الأمر الذي أثار حفيظة البعض من أنداده ، فدأبوا على السعي لدى الملك السعيد فى كل مناسبة يوغرون صدره عليه فانصاع لهم وأمر بالقبض عليه واستبدل به الأمير شمس الدين سنقر الألفى فى منصب نائب السلطنة . وظل الملك السعيد يصغي للمغتابين إلى أن تغيرت مشاعره حيال الأمراء الكبار.

> "وكان جلوسه فى ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ ، وعمره يومئذ عشرون سنة . وكان جميلا جسيما وضيا وسيما ، ولم تكن دارت لحيته بعد إلا أنه كان حَصر اللسان ، قصيرالعبارة ، منقطع الحجة ، إذا سمع خطابا لا يحير جوابا ....
>
> وكان عديم البصيرة ، ضعيف الرؤية ، مضطرب الفكرة ، يميل مع كل مستميل ، ويحول إذا استحيل ، واستحوذ عليه مماليكه الخاصكية الصغار استحواذا أفسد نظام دولته ، وغيّر خواطر الأكابر من أمراء مملكته . ثم أوهموه منهم ، ونفّروه عنهم ، وحسّنوا له إمساكهم . فكان أول من أمسك خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركتخان . ثم بعده الأمير سنقر الأشقر ، الذي كان والده يعدّه لمهمات الأمور ، ويشركه فى الأسرار التي لا يؤتمن عليها الصدور، وتعب فى إحضاره من التتار بأنواع الحيل ، وفداه بابن صاحب سيس . وأمسك الأمير بدر الدين بيسري ،

وكان من والده بمنزلة الولد من الوالد والزند من الساعد . ثم أنهم خيّلوه من الأمير شمس الدين المفارقاني ، نائب السلطنة ، فأمسكه وقتله، لأن مماليك الخازندار اتفقوا عليه مع بعض الخاصكية، وقالوا إنه يطلب الملك لنفسه . ولما كان يوم السبت الحادي والعشرين من ربيع الأول ، أمر بإحضاره إلى باب السر ، فامتنع من الدخول لأنه أحس بما قصدوا به . فأُخِذ غَصبًا وجُرجِر سَحْبًا ، ومضي به إلى داخل الرحبة الجوانية ، ونُتف شعر لحيته ، وكانت وافرة ، فلم يتركوا فيها شعرة واحدة ، وقُتل على مكانته ، وحُمل على لوح ، وأنزل من القلعة ، ودفن . وولي النيابة بعده الأمير شمس الدين سنقر الألفى المظفري

....

وكان الباعث على انتقاض دولته ، واضطراب مملكته وخلعه عن مرتبته ، وذلك أنه لما قبض السلطان على الأمراء والأكابر، وفوض أمره إلى المماليك الأصاغر ، أوجس الأمير سيف الدين قلاوون الألفى خيفة على نفسه ، واستشعر الوحشة بدلا من أنسه . ثم أن والدة السلطان شفعت إليه فى أخيها بدر الدين محمد بن بركتخان ، وفى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسي ، وشفع فيهم الأمراء أيضا ، فأفرج عنهم . ولما رأوا أحواله علي غير نظام ، اتفقوا على خلعه " .

(مختار الأخبار لبيبرس المنصوري ، ص٦٤ - ٦٥)

وخلاصة القول إن كبار الأمراء تيقنوا من غدر الملك السعيد بهم ووقعت رسائله إلى صغار المماليك والمماليك الظاهرية باعتقالهم ، فتوجهوا الى القلعة التي دخلها السلطان تحت غطاء الضباب ، وحاصروها حصاراً شديدا .

".... وأخذ المماليك الذين كانوا بالقلعة ينسلون واحدا بعد واحد ، ولمّا رأي السلطان أنه قد أسلمه رهطه ، أرسل إلى الأمراء يطلب الأمان ، وجعل الحكم فيما يرونه ، وسأل أن يكون له الكرك وأعمالها ، فأجابوه إلى ذلك . وللوقت خرج من القلعة وسُفّر إلى الكرك صحبة بيدغان الركني وجماعة من المماليك يوصلونه ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ ، وكان والده قد ادخر بها أموالا جزيلة وذخائر عظيمة ، كأنه علم بصدق حدسه وقوة نفسه أن مآل أولاده إليها يؤول وأن حالهم بعد مماته سريعا يحول . فشرع الملك السعيد فى انفاقها وتبذيرها " .

(المرجع السابق ، ص ٦٨)

(٢) الملك العادل بدرالدين سلاميش بن الظاهر بيبرس

ترك الملك السعيد عرش السلطنة فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ كما تقدم، وحاول الأمراء اقناع قلاوون الألفي بالجلوس على كرسى السلطة ، فرفض رفضا باتا ، فلم يجدوا بدا من أن يجلسوا ابن الملك الظاهر بيبرس ، بدر الدين سلاميش . فجلس فى نفس الشهر ، وخلع فى شهر رجب منها ، فكانت مدته ثلاثة أشهر وأياما ، وكان أصغر أبناء الملك الظاهر بيبرس .

"وقصد الأمراء أن يجلسوا المخدوم (يعنى قلاوون) فى السلطنة، فامتنع ، وأجلسوا ابن الملك الظاهر ، بدر الدين سلاميش فى الشهر المذكور . ولما أجلس على تخت السلطنة لقب بالملك العادل، وتولى المخدوم (قلاوون)

أتابكية العساكر المنصورة وسير الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بها . وأدنى البحرية الصالحية وأحسن إليهم ورفع لهم الدرجات ، وأعطاهم الطبلخانات . وولاهم النيابات . وأجري على أولاد من مات منهم الرواتب والجامكيات وفاء بهم وحفظا لصحبتهم . وقبض على كثير من الظاهرية الساعين فى تفريق الكلمة وإثارة الفتنة ...."

(التحفة الملوكية ص ٩٠)

(٣) المسعود نجم الدين خضر بن الظاهر بيبرس

لم يجلس خضر بن الظاهر بيبرس على عرش السلطنة ، وإنما أقام مع أخيه الملك السعيد بركة خان فى الكرك . وبعد وفاة الملك السعيد ، ودفنه فى دمشق فى تربة أبيه ، صار الأمر إلى نجم الدين خضر فى الكرك ولقب بالمسعود .

وكان السلطان قلاوون قد اشترط على ولدي الظاهر بيبرس ألاّ يتعرضوا لبلاد أخري غير الكرك وأعمالها ، وألاّ يأتوا عملا مخالفا يثير الفتن والأحقاد . غير أنه كان هناك من انضم اليهم من مماليك الظاهرية ، ومن هرب اليهم من السلطان ومن الديار المصرية ، فزين لهما الشيطان التمرد وضم البلاد فاستوليا علي الشوبك والصلّت والبلقاء، وأرسلوا الرسل الي بلاد الشام يبغون ضمها . وكان السلطان على علم بكل ما يفعلونه ، ولكنه كان يغضى ولا يعطي لتلك الأمور أهميـة ، إلى أن علم أنهم بعثوا رسلهم الى نائب دمشق ، فسيّر إليها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر .

غير أن هذا الأخير سولت له نفسه هو الأخر الخروج عن الطاعة ، كما سيأتى تفصيله .

واستمر المسعود نجم الدين على ما هو عليه ، فى الكرك وما حولها ، لكنه انتهز تمرد سنقر الأشقر فى دمشق على السلطان قلاوون ، وتحالف معه إلى أن حلت سنة ٦٨٠ هـ التي شهدت مراسلات ومفاوضات بين السلطان قلاوون وسنقر الأشقر ،

وفى هذه السنة تقرر الإتفاق مع المسعود خضر بن الظاهر بيبرس على استقراره بالكرك وأعمالها وأمر السلطان بإرسال الحريم والأموال وجميع الأملاك الظاهرية التي كانت بالقاهرة .

وفي سنة ٦٨٥ هـ جرّد السلطان قلاوون حملة إلى الشام على رأسها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري لإسترجاع الكرك وأعمالها التي كانت في أيدي ولدي الظاهر بيبرس بدر الدين سلاميش ونجم الدين خضر. واتبع الأمير طرنطاي طريقتي الترهيب والترغيب ، فحاصرها وأطلق عليها المناجق بعدما أطبق عليها بآلات الحصار وفي الوقت نفسه عرض أجزل العطاء لمن ينسحب من أهلها ورجالها ، فانضمت إليه جماعة من رجالها ، فأغرقهم فى العطايا والأموال ، وأخذ الناس يتسللون من الكرك تباعا إلى أن وجد المسعود نجم الدين خضر وأخوه بدر الدين سلاميش أنهما باتا وحيدين فى القلعة ، فآثرا السلامة .

.....وسألا أمانا ، فضمن لهم الأمير حسام الدين طرنطاي الأمان والإحسان ، وكاتب الأبواب الشريفة بذلك ، وسأل إرسال أحد من خاصة السلطان ليحضر إليهما خاتم الأمان . قال الراوي (يعني كاتب هذا "بيبرس المنصوري"): فندبني فى إعادة الجواب وإنالة الطلاب ، فوصلت إليهما وأعدت رسالته عليهما ، فوثقت آمالهما ونزلا من وقتهما واجتمعا بالأمير حسام الدين ، وسلّما الكرك إليه .... ورتب أمرها ورحل عائدا إلى الديار المصرية وولدا الملك الظاهر معهم مكرمين غاية الإكرام ، محترمين نهاية الإحترام . ولما وصل بهما الى الديار المصرية، ركب السلطان فى موكب كبير وتلقاهم عندما قاربوا القلعة وأقبل على المذكورين اقبالا جميلا وأحسن إليهما إحسانا جزيلا ، ووصلهما بأجزل الصلات ، وعين لهما الإقطاعات والطبلخانات، وأسكنهما فى القلعة وأجراهما بحدي أولاده ، وصارا يركبان معه فى مواكبه . ومكثا

كذلك حتي بلغه عنهما أمورا أنكرها ، فأمر بالقبض عليهما حسما لمادة القيل والقال ، وأودعا الإعتقال ، وبقيا إلى أيام السلطا ن الملك الأشرف ، فسيرهما إلى القسطنطينية فى مركب من ثغر الإسكندرية . فجوزي الملك الظاهر فى ذريته بما فعله بابن المعز ، فإنه سيره الى هناك، ولما أفضى الأمر إلى مولانا السلطان الملك الناصر أحضر نجم الدين خضر الى الديار المصرية ومات سلاميش أخوه بأرض القسطنطينية ، فأحضرته أمه مصيرا لما حضرت . وخرج السلطان إلى الشام المحروسة وخيم بغزة ونزل العساكر عليها وتوجه إلى الكرك جريدة ونظر فى أحوالها ورتب أمورها وأمرني بالإقامة فيها ، فأقمت امتثالا لأوامره الشريفة ، قدس الله روحه ونور بالرحمة ضريحه " .

(المرجع السابق ، ص١١٥- ١١٦)

قلاوون وشمس الدين سنقر الأشقر

كان سنقر الأشقر من مماليك الأمير علاء الدين قراسنقر الكامل ، وبعد وفاة الأمير صار من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان ضمن مجموعة المماليك الذين هربوا سنة ٦٥٥ هـ من جبروت المعز عز الدين أيبك إلى الشام مع ركن الدين بيبرس وقلاوون وسنقر الرومي وبدرالدين بيسري وغيرهم . ولاذوا بالمغيث صاحب الكرك الذي كان على خلاف مع الناصر صاحب حلب . وفى العام التالي ٦٥٦هـ أرسل المغيث صاحب الكرك بعضا منهم الى الناصر فسجنهم فى قلعة حلب ، وكان منهم سنقر الأشقر، ونجا ركن الدين بيبرس البندقداري وقلاوون .

وعندما فتح الظاهر بيبرس أنطاكية استسلمت له شتى قلاع وحصون الصليبيين خاصة قلعة بغراص ، واستسلمت هى الأخري للظاهر بيبرس .

"وأمر السلطان بإحراق قلعة أنطاكية ، فأحرقت ورحل عنها. ولما رأي الداوية (يعنى فرسان نظام المعبد) الذين كانوا فى بغراص هذه الأمور ، واستيلاء الإسلام على الحصون والثغور ، انهزموا وأخلوها . فأرسل السلطان الأمير شمس الدين آقسنقر القارقانى فتسلمها عامرة آهلة بحواصلها . وفيها كان الشرط تقرر مع صاحب سيس بأنه يتحيل على استنقاذ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من التتار ، وإحضاره إلى هذه الديار ، وهنالك يطلق له ولده ، لأنه كان مذ حصل ابنه فى الأسر (أي ابن صاحب سيس) يبذل الأموال والقلاع فى فديته ، والسلطان يأباها ولا يريد منه إلا إحضار المذكور (أي سنقر الأشقر). فاجتهد فى التحيل على ذلك والتوصل بجميع الممالك حتى استخلصه من هنالك . فلما رحل السلطان عن أنطاكية ، ووصل إلى قريب دمشق ، أرسل إليه يعلمه بأن مقصوده قد حصل وأن سنقر الأشقر قد وصل . فأمر بأن يكون حضوره إلى الدهليز فى خفية فحضر ليلا وبات عنده ، وأصبح من الغد راكبا معه فى الموكب ، فحارالناس وبهتوا لما شاهدوه ، ولم يعلموا كيف كان أمره . وأرسل السلطان أحضر ابن صاحب سيس من القلعة المنصورة ، وسيره إلي والده . وفيها أخذ جبلة من صاحبها افرير (يعنى الأخ الراهب Frere) ماهي صافاج . وأرسل صاحب عكا يسأل الصلح فأجابه ، وعاد السلطان الى الديار المصرية " .

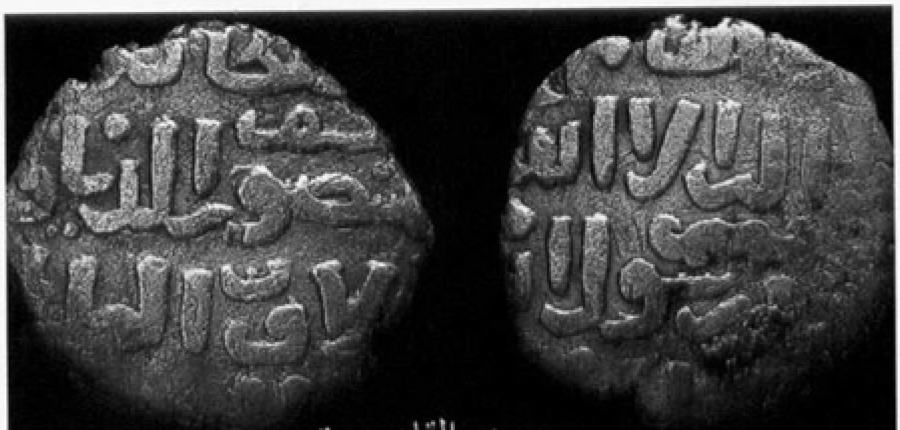
(المرجع السابق ، ص٦٤)

♣♣♣♣♣

الفصل الثـاني

السلطان الملك المنصور
أبو الملوك
سيف الدنيا والدين
قـلاوون الألفى الصالحي النجمي

٦١٩ ـ ٦٨٩ هجريـة ♣ ١٢٢٢ ـ ١٢٩٠ ميلادية


درهم القاهرة


درهم دمشق

(١) قلاوون السلطـــان

(٢) قلاوون رجل الدولـــة

(٣) قلاوون يقضى على الفتن الداخلية

(٤) السياســة الخارجيـــة

♣♣♣♣♣♣♣

(١) قلاوون السلطـــان

ذكر سلطنــة الملك المنصورأبي الملوك سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي المخدوم (٦٧٨ هـ)

"قال الراوي : ولما سأله الأمراء وتوسل إليه الكبراء أن يلي الأمر بنفسه لتطمئن القلوب وينتشر الصيت الى البعيد والقريب ، أذعن لموافقتهم وجنح لمقالتهم لما ترجح ذلك عند جماعتهم . فجلس على منبر الملك وسريره ، وأخذ فى توثيقه وتدبيره ، وخطب له على المنابر فى الوقت المذكور، ولقب بالسلطان الملك المنصور. وكتب إلى الآفاق الكتب بتجديد ملكه وانتظام الممالك الإسلامية فى سلكه . فضربت البشائر بكل مكان ، وخضع كل قاص ودان واستكان ، وخطب له على المنابر وعم الهناء البادي والحاضر ، وتشرفت بِسِمَـة اسمه النقود وتطرزت برقم رسْمه عذبات الأعلام والبرود ، وكانت النفوس تشهد بسلطنته وتتوسمها على سِمَـته . وكان الظاهر (بيبرس) قاطعا بمصير الأمر إليه ، وكان ذلك مما بعثه على صلته ومصاهرته " .

(المرجع السابق ، ص ٩١)

(٢) قلاوون رجل الدولـــة

مر بنا أن الملك السعيد بن الظاهر بيبرس لم يحسن إدارة السلطنة ، وانحاز الى الأمراء الأصاغر ونكّل بالأمراء الأكابر ، فراحت والدته تشفع فى الأمراء المعتقلين ، وبدأت بأخيها بدر الدين محمد بن بركتخان ، وفى الأمير سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسي ، وشفع فيهم الأمراء أيضا وظلوا به إلى أن أفرج عنهم ، أما الأمير سيف الدين قلاوون فلم يكن من المعتقلين ، غير أنه اوجس الخوف على نفسه، وداهمه الشعور بأنه وحيد بعد أن كان أنيسا يخالط الناس .

واجتمع الأمراء وتشاوروا ، واستقر رأيهم على خلع الملك السعيد بن الظاهر بيبرس ، وعلى أن يجلس الأمير قلاوون فى كرسي السلطنـــة , وحدثوه فى ذلك ، لكنه أبي وامتنع ، فاضطروا إلى أن يجلس بدر الدين سلامش . وقد حدث ولُـقــّب بالملك العادل ، وتقرر أن يتولى قلاوون الأتابكية العسكرية ، فعين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وكلــّفة بالتوجـه إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بها .

وتولى المخدوم (يعنـى قـلاوون) أتابكيـة العسـاكر المنصورة وسيـّر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بها . وأدني البحرية الصالحية وأحسن إليهم ورفع لهم الدرجات وأعطاهم الطبلخانات ، وولاهم النيابات، وأجري على أولاد من مات منهم الرواتب والجامكيات وفاء بهم وحفظا لصحبتهم . وقبض على كثير من الظاهرية الساعين فى تفريق الكلمة وإثارة الفتنة وجزاهم بسوء سيرتهم التي كانت سببا لخراب بيت

أستاذهم وبيتهم ، ومكث على ذلك شهورا قليلة ،
فألزمه الأمراء والكبار بأن يجلس فى الدست مستقلا ،
فأجاب ورأي ذلك من الصواب .

(التحفة الملوكية في الدولة التركية)

(تأليف بيبرس المنصوري ص ٩٠)

(٣) قلاوون يقضى على الفتن الداخلية

بدأ السلطان قلاوون عهده السلطاني كي يكمل المسيرة القتالية التي كانت تسير جنبا إلى جنب مع التطورات السياسية والأحداث الجسام التي صبغت مصر والشام وما جاورهما من المناطق منذ بدأ العصر المملوكي ، وما سبقه من صراعات صليبية .

فكان على قلاوون - كشأن سلفيه بيبرس وقطز - أن يتعامل مع أعتي عدوين من أعداء الأمة العربية والإسلامية : المغول والصليبيين . بيد أنه ينبغي القضاء على الفتن الداخلية التي دأب الظاهرية على إثارتها بتحريض أولاد الظاهر بيبرس على الإنقلاب عليه ، وضم القلاع والحصون واستمالة أقزام الأمراء . هذا فضلا عن محاولات تفتيت البلاد .

ذلك أن أولاد الظاهر بيبرس حينما اختاروا الإقامة بالكرك ، ضربوا عرض الحائط بما اشترطه عليهم قلاوون من عدم تجاوز الكرك إلى غيرها من الأنحاء والحصون ، وعدم الإنسياق الى ما قد يغويهم بذلك . وجاءهم صغار أمراء المماليك الظاهرية ، ومن هرب من مصر ، وتلاقت الأهواء فى التوسع ، فاستولوا على الصلت والشوبك والبلقاء ، وجاوزت اطماعهم ذلك وتطلعوا إلى ضم الشام كله حتى أنهم أرسلوا رسلهم الى نائب السلطنة فى دمشق يرمون ضمها اليهم .

وهنا استشعـر قلاوون الخطر ، فأرسل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق بعد أن جهّـزه بما يلزم لدفع الأخطار من العتاد والرجال . على أن سنقر الأشقر بعد أن وصل دمشق وصار نائبا للسلطنة سولت له نفسه الانفراد بالشام وبقاءه وأعلن نفسه سلطانا ، واتخذ لنفسه لقب الملك الكامل ، و حصل على تأييد باقي البلاد ومنها صهيون ، وجيّش الجيوش لمحاربة قلاوون ، ووصلت جنوده الى غزة .

وقد ملكته نفسه الآن فأصر على الإنتقاض والاستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية وولى فيها وطالب المنصور قلاوون دخول الشام بأسرها من العريش إلى الفرات في ولايته وزعم أنه عاهده على ذلك . وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحدارا في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر سنقر وانتقض ودعا لنفسه . ثم بلغه خبر قلاوون وجلوسه على التخت فدعا الأمراء وأشاع أن قلاوون قتل واستحلفهم على منعته وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل وذلك في ذي الحجة من السنة . وقبض على لاشين نائب القلعة. وجهز سيف الدين إلى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف وولى في وزارة الشام مجد الدين إسماعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة. ثم بعث السلطان أيبك الأفرم بالعساكر إلى الكرك لما توفي السعيد صاحبها وانتهى إلى غزة واجتمع إليه ببليك الأيدمري منقلباً من الشوبك بعد فتحه فحذرهم سنقر الأشقر وخاطب الأفرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام. وولي في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الأفرم بالكتاب إلى السلطان قلاوون فأجابه وتقدم إلى الأفرم يكاتبه بالعزل فيما فعله وارتكبه فلم يرجع عن شأنه وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قرا سنقر المقري إلى غزة ، فلقيهم الأفرم وأصحابه وهزموهم وأسروا جماعة من أمرائهم وبعثوا بهم إلى السلطان قلاوون فأطلقهم وخلع عليهم. ولما وصلت العساكر مفلولة إلى دمشق عسكر سنقر الأشقر بالمرج وكاتب الأمراء بغزة يستميلهم وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجر لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فساروا إلى دمشق فلقيهم الأشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين وتقدموا إلى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجر لاشين المنصوري من الإعتقال وولاه نيابة دمشق. وولى على

القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب إلى السلطان بالفتح. وسار سنقر إلى الرحبة فامتنع عليه نائبها فسار إلى عيسى بن مهنا ورجع عنه إلى الفل وكاتبوا أبغا ملك التتر واستحثوه لملك الشام يستميلونه فلم يجب وبعث إليه العساكر فأجفلوا إلى صهيون وملكها سنقروملك معها شيزر .

وراح السلطان يكاتب سنقر الأشقر كي يرجع عن غيّه ، وبذل له الوعود إذا جنح الى نبذ الفرقة ، ولكن دون جدوي . وهكذا استبد الملك الكامل سنقر الأشقر. ومكث فى صهيون التي كانت أقرب الحصون إليه .

" ... وبلغ السلطان عنه هذه الأمور ، فكاتبه يسترجعه ويستوقفه ويستميله ويستعطفه وهو مصر على التماد ، قائل بلسان الحال : إنك لفى واد وأنا فى واد . وتبع ذلك أن الملك السعيد سير جماعة من المماليك الذين كانوا معه ليأخذوا الشوبك له ، فبلغ السلطان فأنكر منه هذا العدوان ، فأرسل إليه أن لا تفعل . فلم يصغ للمقال ولا أجدي عليه عذل العذال . فجرد السلطان الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري إلى الشوبك ، فأخذها ورتب فيها نائبا . واتفقت بعد برهة يسيرة وفاة الملك السعيد ، فإنه لعب الكرة فى الميدان فتقنطر عن متن الحصان وحم يويمات ثم مات ، وحمل بعد ذلك الى دمشق ، فدفن فى تربة والده ، وقام أخوه نجم الدين خضر مقامه فى الكرك ولقب بالمسعود .

" والسلطان يكاتب سنقر الأشقر بالتلطف والترغيب ، وأن يسمه من نعمته إن هو أناب أوفي نصيب ، وهو مجد فى أمره ، مجتهد فيما خطر بفكره من استصفاء الشام وقلاعه، واستخلاص أعماله وبقاعه .

دوجرد السلطان الأمير عز الدين الأفرم فى بعض المهمات ، فأوجس سنقر الأشقر منه واستجاش وجمع وأخرج من دمشق عسكرا للقائه . فعاد الأفرم الى غزة لأنه لم يكن بصدده ولا معه عدد يفي بعدده ، ووافاه الأمير بدر الدين الأيدمري عليها . ولما اجتمعا فيها ، وصل بعث سنقر الأشقر صحبة قراسنقر المعزي ، فالتقوا على غزة ، فانكسر عسكر الشام وبادروا بالإنهزام ، وأسر منهم جماعة وأحضروا إلى السلطان ، فأحسن إليهم وخلع عليهم ولم يعنف أحدا منهم . ثم إن سنقرالأشقر استخدم الأجناد واستظهر الاستعداد ، وبرز بجموعه التي جمعها واستمالها بالوعود وخدعها . وخرج من دمشق ، وجرد إليه السلطان الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، فإنه كان من اضرابه ، وكان أخبر بالنزول وأدري به ، فالتقيا علي الجسورة ، والتحم بين الجيشين القتال ، وتلاقت الأبطال ، فحمل الحلبي على سنقر الأشقر حملة زحزحته عن مكانه ومكنت الذعر من جنانه ، فولى طالبا طريق الرحبة ومعه عيسي بن مهنا لضرورة الهزيمة لا يحفظ الصحبة . وكانت هذه الوقعة في صفر سنة تسع وسبعين وستمائة . ونزل الحلبي على دمشق ورتب الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي فى قلعتها ، وكان السلطان قد أرسل حسام الدين لاجين مملوكه إليها ورتبه فيها ، فأمسكه سنقر الأشقر وحبسه هو والأمير ركن الدين الجالق ، فأفرج الحلبي عنهما وكتب إلى السلطان بما تجدد . فرسم السلطان بترتيب الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في نيابة السلطنة بالشام ، فترتب بدمشق منذ

تلك الأيام ، ولما عاد الحلبي إلى السلطان وصحبته من حضر مع سنقر الأشقر من الأمراء وقد حصلوا فى الأسر، صفح عن جميعهم وأضرب عن تقريعهم وأعطاهم الخيل المسومة والخلع المعلمة وحوايص الذهب وأعاد كلا منهم إلي مظنته مستمرا على إمرته . فيالهذا الحلم الحقيق يقول الشاعر:

فإن حلمك حلم لا تَكلّفه   ليس التكحل فى العينين كالكحل"

(التحفة الملوكية ، ص ٩٢ – ٩٤)

لم ييأس الأشقر ولم يستسلم ، وإنما أرسل إلى أبغا هولاكو ، إذ أنه عندما كان فى بلاد المغول تزوج منهم وأولد أولادا أقام بعضهم فى تلك الديار ، فأرسل إليهم أيضا يستنصرهم ويستدعيهم إلى الديار الإسلامية ، ويغريهم بالزحف على الشام

" . وردت الأخبار بحركة التتار ، وأنهم قد جاءوا ثلاث فرق : فرقة من جهة الروم صحبة صمغار وينحي وطريحي ، وفرقة من الشرق صحبة بيد بن طرغاي أخي أبغا بن هولاكو وفيهم صاحب ماردين وأمد ، وفرقة ثالثة صحبة منكواتمر بن هولاكو ، وهي جل عساكرهم وجميع أكابرهم . وتواترت الأخبار بأنهم قد قاربوا بلاد الروم ، وخرج إليهم صاحب سيس من طريق الدربساك ، فعزم السلطان على المسير الى الشام وفكر فى أن سنقر الأشقر مستمر على الإنفراد وعدم الإنقياد ، وأنه قد ينحاز اليهم فيكون على المسلمين شر الأعوان فكاتبه يتلطفه ويعنفه ويرغبه ويرهبه ويذكره الخشداشية والصحبة ، ويوعده

المواعيد الجميلة إن هو رغب فى القرية ، فجنحْ الى ذلك وأجاب وأظهر أنه أناب . ولما أزمع السلطان السير بالعساكر ، قلد ولاية عهده ولده الملك الصالح " .

(التحفة الملوكية ، ص ٩٥)

(٤) السياسة الخارجية

وسار قلاوون على نهج بيبرس من قبله ، فعقد المعاهدات مع الدويلات الصليبية المتبقية ، وغالبا ما كان يعاهد الأنظمة الدينية العسكرية والأمراء الصليبيين الذين كانت تتملكهم النزعة الى الإستقلال ؛ وهكذا كان أمير صور وأعمالها مستقلا عن مملكة القدس فعقد معه قلاوون المعاهدات وكذلك كانت بيروت مستقلة عن مملكة القدس وكانت على تلك الحال منذ عهد الظاهر بيبرس . وكانت الدويلة الصليبية التي ركز عليها جل اهتمامه هي مملكة عكا .

ودائما ما كانت المعاهدات فى صالح قلاوون ، وعلى سبيل المثال اتفق فى المعاهدة المعقدة بينه وبين صور على ألآ تبني المدينة أية استحكامات جديدة ، وأن تبقي فى حالة حياد اذا اندلعت الحرب بين المماليك وغيرهم من الصليبيين . كما اتفق على أن يحصل قلاوون علي نصف ضرائب المدينة .

كما قام قلاوون فى عام ١٢٨١م بالتحالف مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولاجوس Michael VIII Palaeologus ضد تشارلز أوف أنجو Charles of Anjou الذي كان يهدد كلا من الإمبراطورية البيزنطية ومملكة القدس .

ولقد شعر قلاوون بالخطر من أنباء هجوم مغولى ، فأسرع بالتصالح مع سنقر الأشقر ، مانحا إيّاه إقطاعيتين كبيرتين فى شمال سوريا هما أنطاكيه وأفاميا ، وبذا أدخل سنقر الأشقر فى حناحه ووقف الرجلان يستعدان لصد الهجوم المغولى المرتقب . ولم يكتف قلاوون بذلك ، وإنما اتجه الى الصليبيين كي يضمن حيادهم

وعدم تعاونهم مع الغول ، فبادر بإرسال رسله الى عكا يقترح عقد هدنــة مدتها عشر سنوات ، على الرغم من أن الهدنة السابقة مع عكا فى عام ١٢٧٢م كانت ما تزال سارية لمدة عام أخر . ووجد أبناء عكا فى الهدنـة الجديدة عاملا إيجابيا يضمن لهم ازدهارا تجاريا وسلاما طالما أفادهم في حياتهم وفى تجارتهم وتعاونهم مع البنادقة وغيرهم . على أن البعض من السفارة المصرية نصح الفرنج بعدم قبول الهدنة مع قلاوون إذ سرعان ما سينقلب عليهم بعد فراغه من الغزو المغولى . وعندما سمع روجر أوف سان سيفرينو بذلك ، أرسل الى السلطان قلاوون يحذره من هؤلاء الخونة المصريين ، واستطاع قلاوون القبض علي هؤلاء المتآمرين فى الوقت المناسب. وبعدها وافقت الأنظمة العسكرية الدينية فى عكا على تلك الهدنـة وكان تاريخها ٣ مايو ١٢٨٣م ،وكانت أهم بنود الهدنة التي عقدت مع مملكة عكا (١٢٨٣م) كما يلي:

١ ـ مدة الهدنة عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيام.

٢ ـ منح التجار من رعايا السلطان الأمن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية.

٣ ـ توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .

٤ ـ لا يجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصناً ولا سوراً.

٥ ـ تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة.

٦ـ حرية الملاحة وتقديم العون الى السفن الجانحة، والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أو من يلوذ بهم.

٧ ـ يتولى فرنج عكا إنذار السلطان وإعلامه بأي تحرك اوروبي مضاد له، وكذلك بالنسبة الى تحركات المغول.

٨ ـ يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من أعمال القرصنة.

٩ ـ السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول الى الأماكن المقدسة، وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم.

وبعد نحو شهرين ، فى ١٦ يوليو ١٢٨٣ م وقع بوهمند على هدنة مماثلة .

وهكذا حقق قلاوون انتصارا دبلوماسيا كبيرا يدل بحق على حنكته السياسية الى جانب عبقريته العسكرية . فلو أن الصليبيين اتحدوا وجابهوه ، لتعقدت حملته ضد المغول ولأصبح فى فى وضع لا يحسد عليه وربما أصابته أخطار كبيرة .

وفى عام ١٢٩٠م ، وقبيل وفاته ، أبرم قلاوون تحالفات تجارية مع أبناء جنو ومملكة صقلية .

♣♣♣♣♣♣♣

الفصل الثالـــث

البنـــاء والحضـــارة

النشاط الحضـــاري

(١) المدرسة المنصورية

(٢) الفنون المعماريـــة

(٣) المسجد النبوي الشريف

(٤) رعايتـــه لإسلام المغول

ـــ النشــاط الحضــاري

والأحري أن نطلق عليه الجهـاد الحضـاري . ذلك أن الفتن الداخلية ، المتمثلة فى مساعي أولاد الظاهر بيبرس فى الإنفصال بمناطق فى الشام وتمرد سنقر الأشقر ، فضلا عن الخطر الصليبي والتهديد المغولى ، وإعداد الجيوش وما يستلزم ذلك من جهد ومال ، فى ذلك الوقت الذي كان فيه السلطان قلاوون يواجـه خطر تقسيم المملكة ، وهجمات المغول وتهديد الصليبيين ، وبينما كـان منشغلا بتوفير الأموال اللازمـة لإعداد الجيوش بما تلزمه من معدات وتسيير الحملات العسكرية الى شتى المنـاطق والبقـاع ، كل ذلك لم يصرف ذهن ذلك السلطان العظيم عن بعث النشـاط العلمـي وإنشاء المدارس والمساجد والإهتمام بالعمارة ، خاصة وأن القاهرة قد أصبحت ملاذا لطالبي العلوم والمعرفة بعد سقوط بغداد وتعاقب سقوط الدول الإسلامية فى الأندلس ، فتوافد عليهـا العلمـاء واتخذوها قبلـة لهم، ووجدوا فـي كنـف السلطان قـلاوون كـل رعاية واهتمام . فصارت القاهرة مركزا للإشعاع الحضاري ، ، وفتحت أبوابها على مصراعيها لكل طالب علم واحتضنت شتي المفكرين والعلماء .

كـان قـلاوون يـدرك أن العلـوم والحضـارة تمثـل سـلاحا أنجـع مـن السـيوف والمناجق ، فراح يبث الحياة فى المؤسسات العلمية ببنـاء المدارس والمساجد ودور العلم .

(١) المدرسة المنصورية

أقام السلطان قلاوون عددًا من المدارس التي امتلأت بالشيوخ وطالبي العلم، وأهمها المدرسة المنصورية، التي أوقفها لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان يتولى التدريس بها كبار الأئمة وأعيان الفقهاء و. وتتضمن حجة الوقف التي كتبها قلاوون إشارات كثيرة تتعلق بتنظيم العملية التعليمية داخل المدرسة من حيث مقر الدراسة، وجلوس أهل المذاهب الأربعة بها، وأماكن سكن المدرسين الفقهاء وأجورهم ورواتبهم وغير ذلك من الشروط. وتعد المدرسة من أروع المدارس المملوكية التي شيّدت بالقاهرة لعمارتها الراقية، وزخارفها الرائعة.

كما أنشأ قلاوون القبة المنصورية التي أصبحت تعلو ضريحه وجعل منه مدرسة ومسجدًا، ورتب به خمسين مقرئا يقرءون القرآن ليلاً ونهارًا، وخصص له إمامًا للصلاة، وعالمًا لتفسير القرآن للطلاب الذين يؤمون القبة، وجعل بها خزانة للكتب، وخازنًا يقوم بأمرها، وهذه القبة من أجمل القباب الباقية بمدينة القاهرة.

(٢) الفنون المعمارية

<u>ضريح قلاوون ، ثانى أجمل ضريح فى العالم :</u>

يقول المقريزى فى كتابه (تقاسيم المدن العمرانية الإجتماعية السياسية) أن هناك سلسلة من القاعات حلت محل نصف القصر الفاطمى الصغير . أما القاعة الكبيرة فكانت تعرف بقاعة ست الملك . وست الملك هى ابنة الخليفة العزيز بالله بن المعزلدين الله . وتنوع الإسم فى العصورالتى تلت ، وكان للقاعة الكثير من الورثة والمشترين إلى أن أصبحت من أملاك ابنة الملك العادل الأيوبى ، مؤنسة خاتون . وقد اشتراها منها السلطان قلاوون فى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م .

ويقول على باشا مبارك فى كتابه (الخطط التوفيقية) إن سنقر الشجاعى بنى مجمّع قلاوون فى أحد عشر شهرا . كما يُعرف السلطان قلاوون بأنه (السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى . وقد اشتراه بادئ الأمر الأمير علاء الدين آقسنقر السخى العادلى بألف دينار وفيما بعد ، فى سنة ٦٥٧هـ / ١٢٤٩م ، أصبح من مماليك الصالح نجم الدين أيوب الذى جعله أحد المماليك البحرية ، وترقى فى جنديته إلى أن أصبح أتابجا (أو قائد جيش) ، ثم أصبح فى عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م سلطان مصر ، واستمر يتربع على كرسى السلطنة إلى أن وافاه الأجل مساء يوم السبت ٦ من ذي القعدة عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، ودفن فى الضريح الذي بناه فى شارع بين القصرين خلف شارع المعز فى قلب القاهرة الإسلامية .

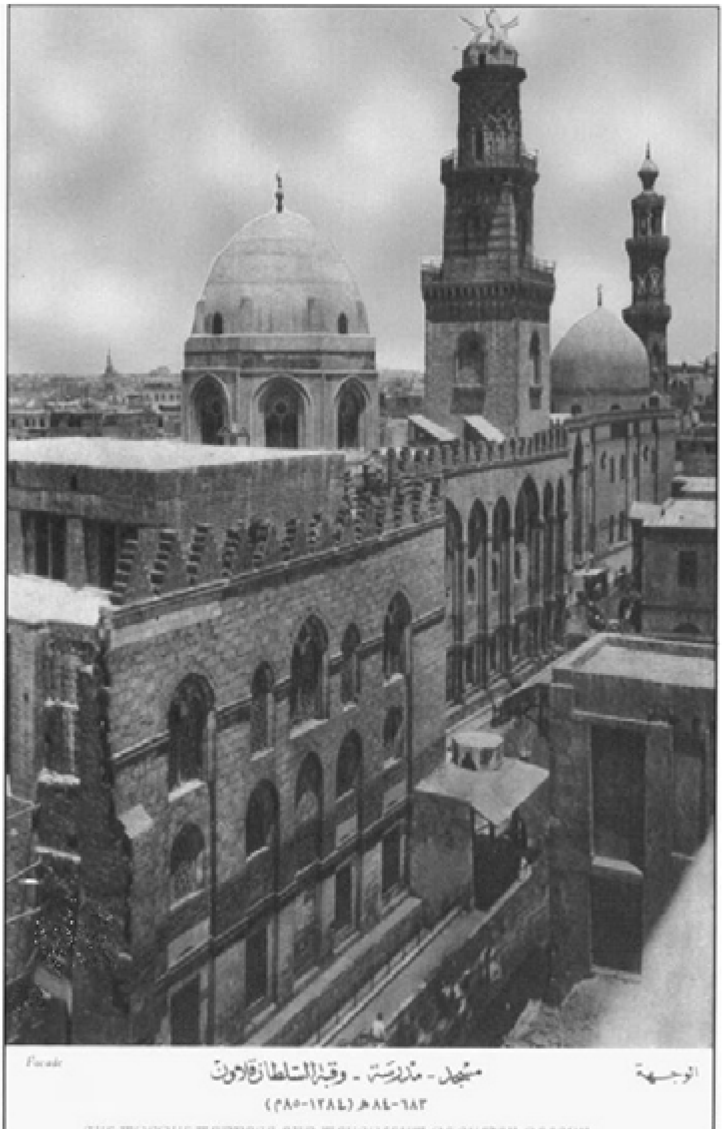
ومجمّع قلاوون هو أحد أروع الفنون المعمارية التى أنشئت فى ذلك الوقت . وهو يتألف من مدرسة وبيمارستان (يعنى مستشفى) وضريح ذي قبة غاية فى

الروعة والجمال . ويقول المؤرخون إن المهندس المعماري الذي بنى المجمّع استخدم أعمدة من الجرانيت والرخام بالإضافة إلى مواد أخرى أخذها من قلعة الصالح نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة النيلية . وقد بُني المجمع على مراحل ثلاث : البيمارستان ، والضريح ، والمدرسة . وبعد الإنتهاء من بناء المجمع خصص له السلطان هبات (من أموال الأوقاف) فى مصر وبلاد أخرى ، فضلا عن منحة قدرها مليون درهم سنويا .

ولقد رُمّم المجمع عدة مرات فى عصر الناصر محمد بن السلطان قلاوون ، فقد رمم المئذنة بعد زلزال حدث عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م ، وسجّل تاريخ ترميمها عليها ، وفى عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م ، استبدل حوض الشرب المخصص للحيوانات وحل محله سبيل ليشرب منه الناس بدلا من الحيوانات ، ومكانه أمام المدرسة ، ولايزال السبيل متواجدا حتى اليوم .

وفى سنة ١١٧٥هـ / ١٧٧٦م قام عبد الرحمن كاتخودة بترميم المجمع وتقويته ، وعبد الرحمن هذا هو الذي بنى السبيل الشهير فى قلب شارع المعز، وهو السبيل الذي يعتبر كنزا من كنوز العمارة العثمانية . كما يرى البعض أن ضريح قلاوون يعد ثانى أجمل مقبرة فى العالم بعد تاج محل فى الهند . فالضريح قطعة رائعة فى فن العمارة المملوكي ، سواء بتخطيطه الفريد ، أو بعناصر زخرفته ، أو بشتى المهام التي ينجزها .

♣♣♣♣♣♣♣



Facade — الوجهة

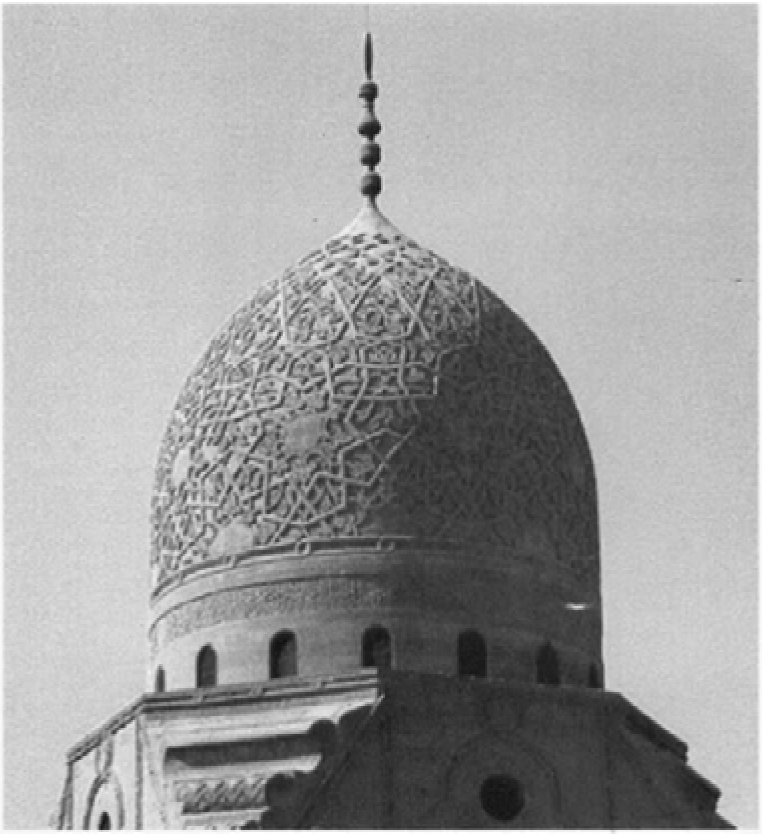
مسجد - مدرسة - وقبة السلطان قلاوون

٦٨٣-٨٤هـ (١٢٨٤-١٢٨٥م)

THE MOSQUE MADRASA AND MAUSOLEUM OF SULTAN QALAUN

683-84 H. (1284/85)

Plate 38 — لوحة ٣٨



من روائع العمــارة المملوكيــة

ويقول النويري في نهاية الأرب أن مدفن قلاوون لم يكن المقصود بناءه لهذا الغرض ، وإنما ليكون مقرا لمدرسة ولمسجد . ولقد أولاه السلطان شتى المهام فى حياته ، ولم يستخدم كمقبرة قط إلا عندما وضع فيه جثمانه . ولقد ظل جثمانه فى القلعة طوال شهرين إلى أن قام ابنه الأشرف خليل بإعداد مكان فى المجمع لدفنه. كما دفن فيه ابنه السلطان الناصر محمد الذي أنشأ مجمعا ملاصقا لمجمع قلاوون . كما دفن مع أجداده حفيد قلاوون الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن محمد. واستمر الضريح يؤدى دوره الدينى حتى بعد أن أصبح مدفنا لأبناء قلاوون . ويقول المقريزى فى الخطط (الجزء الثانى ص ٣٨١) إن السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وهب الضريح مبالغ أوقاف من مبانى صور وصيدا .

كما يتعين التنويه إلى أن الضريح يحوي متحفا لحفظ ملابس المدفونين فيه . وهذا ثالث متحف من نوعه ، أولها ملحق بمسجد سيدى عقبة بن عامر ، والثانى كان ملحقا بضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد بنته زوجته شجرة الدر.

و تمتد الواجهة الرئيسية للمجمع ، وهى الواجهة الجنوبية الشرقية فى شارع المعز ، بطول ١٢ر٣٥ مترا (بما في ذلك القبة) ويبلغ ارتفاعها ٢٥ر٢٠ مترا . وبها ثلاث فجوات منخفضة فى الجدار ترتفع على أعمدة مستدقة تتصل بأنصاف دوائر ، وترتكزعلى قواعد أعمدة قصيرة شيئا ما تقوم كل منها على قاعدة رخامية مستديرة .

وفى عام ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م ، قام الوالى عبد الرحمن كتخودا بهدم القبة الرئيسية وأعاد بناءها . وعلى أية حال قامت لجنة الحفاظ على الآثار العربية فى عام ١٩٠٨م ببناء قبة أخرى لتحل محلها . وقد أخذت القبة ا لجديدة شكلها وتكوينها من قبة الأشرف خليل التى كانت معاصرة للقبة الأصلية فى سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م . وفى منتصف أرضية الضريح مسطح رخامى ذو مستويين وعلى الضريح الخشبي كتابات خشبية بالخط الكوفى والنسخ.

وقد ضاعت أجزاء من ذلك الضريح الخشبي . وتوجد على جانبين من جوانب التابوت الخشبى نقوش بزوايا سداسية وثمانية محفورة تقول : "قلوون

الصالحى ، سلطان الإسلام والمسلمين . قدس الله روحه وأنار قبره ، وأدخله فى رحمتـه "

وحوائط الضريح الداخلية مغطاه بالرخام بارتفاع ١٨ر٤ أمتار من مستوى الأرض . وتوجد باقتان رخاميتا فوق الأركان ، أحدهما بزخارف الزهور والأخرى بنقوش كبيرة بخط النسخ ، وقد غطاهما الذهب والألوان .

والكسوة الرخامية داخل الضريح مملوءة بالزخارف من أروع أنواع الرخام والفسيفساء ، آخذة شكل الزهور والأنماط الهندسية ، فضلا عن كتابات بالخط الكوفى ذي التربيعات فيها كلمة محمد مكررة ثمانى مرات أو اثنتى عشرة مرة .

(٢) المسجد النبوي الشريف

كان السلطان قلاوون أول من أوجد القبــة على الحجرة المطهرة عام ٦٧٨هـ ، / ١٢٧٩ م وظلت ما يزيد على قرنين من الزمان تعلو الحجرة المطهرة إلى أن حدث حريق فى المقصورة الشريفة والقبة سنة ٨٨٦هـ وذلك في عهد السلطان قايتباي . وعلى الفورجددت القبة وأقيمت لها دعائم ، ولم يسقط شي من حريق القبة على الحجرة المطهرة فقد كانت القبة المصغرة التي بناها السلطان قايتباي مانعة لذلك . أما المقصورة فقد صنعوا لها شبابيك من نحاس من جهة القبلة ، وجعلوا لقبة المقصورة من جهة الشرق والشمال والغرب شبابيك من حديد أعلاها أشرطة من نحاس لمنع الحمام .

وكان قلاوون قد أبدل بسقف الحجرة الشريفة هذه القبة العالية بقصد حماية الحجرة من نزول المطر إليها، ويعطي السمهودي وصفا للقبة فيقول: "مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بالخشب، أقيمت على رؤوس السواري (الأعمدة). عليها ألواح من الرصاص، فيها طاقة (شباك)، تطل على السقف السفلي للمسجد المغطى بالمشمع، وأحيط على السطح القريب من القبة بالرصاص، وأشرف على بنائها كمال الدين بن برهان الربعي.

وفـي عهد قلاوون أيضـا عملـت ميضـأة ليتوضـأ المصـلون، وكانـت خـارج المسجد عند باب السلام وذلك سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م، وأشـرف علـى عمارتها عـلاء الدين المعروف بالأقمر.

♣♣♣♣♣♣♣


القبة الشريفة أعلى المسجد النبوي

(٣) رعايتـــه لإسلام المغول

من أسمي معاني الحضارة النهوض باذلإنسان والأخذ بيده إلى عالم الإسلام والإيمان ، كي ينعم بأنوار الوحدانية وبركاتها ، ويسعد فى عبوديته لله وحده ، فلا يخاف أحدا غيره سبحانه وتعالي مهما عظمت مكانته ، ومهما بلغ جبروته ، إنها حلاوة العبودية لله بعد أن ضاعت العقول وضلالت القلوب فى رجس الوثنيات المغولية وغير المغولية ، فالإسلام هو دين الفطرة التي لا تشوبه شائبة. ولئن كان المغول قد انتصروا طوال زحفهم ، فإن انتصارهم الحقيقي كان على أنفسهم وعقولهم باعتناقهم الإسلام دونما إجبار أو إكراه . وفى عهد السلطان العظيم قلاوون ، دخل المغول فى دين الله أفواجا ، زعماؤهم قبل رعاياهم ، ووجدوا في القاهرة المنارة الإسلامية التي تسلمت الراية من بغداد ومن قرطبة .

بيان أذيع فى بغداد
باسم السلطان أحمد بن ملاوى
يعلن اعتناقه للإسلام

السلطان أحمد المغولى أول من أسلم من ملوك المغول

بسم الله الرحمن الرحيم : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله وإنا جلسنا على كرسى الممالك ونحن مسلمون ، فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى، ويعتمدون فى المدارس والوقوف وجميع وجوه البرما كان يعتمد أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق إلى حقه فى أوقات المساجد والمدارس ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية . وأنتم يا أهل بغداد مسلمون وسمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تبرح هذه العصابة الإسلامية مستظهرة إلى

يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح ورسول صحيح ورب واحد أحد فرد صمد ، فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها .

(تشريف الأنام والعصور لإبن عبد الظاهر - ٤)

رسالة السلطان أحمد المغولى
إلى السلطان الملك المنصور قلاوون
مع مبعوثيه لما أشهر إسلامه

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى، بإقبال قا آن فرمان أحمد إلى سلطان مصر

أما بعد - فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والإعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته وحسن الإعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى بعد ابينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا فاجتمع عندنا فى قوريلتالى (أي مجلس السلطنة) المبارك - وهو المجمع الذى ينقدح فيه الآراء - جميع الإخوان والأولاد (أي أمراء البيت المالك) ، والأمراء الكبار ومقدمو العساكر وزعماء

البلاد واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير فى إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا لعظيم صولتها، وشديد بطشهم إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد. ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمنا عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتناء الخير العام الذى هو عبارة عن تقوية شعائر الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا – ما أمكننا – إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء (أي الحرب) ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء . وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح الحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين؛ فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه . وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاكم طريقتنا ، وبتحقق ما تنطوى عليه لعموم

المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أننا من الله على بصيرة. وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله . ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال، فكل يوم هو فى شأن . فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تتحكم بسببه دواعى الإعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره . فإننا ابتدأناه - بتوفيق الله تعالى- بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، فى إيراد كل أمر وإصداره تقديما ، وإقامة نواميس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، إجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا : عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وإيصال حواصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ، ومنعنا أن يلتمس شئ بما استحدث عليها ، وألا يغير أحد ما قرر أولا فيها ، وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها. وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسن اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقراغول (حراس الطرق) والشحانى (شحنات) فى الأطراف التعرض بهم فى مصادرهم ومواردهم . وقد كان صادف قراغولنا جاسوسا فى زي الفقراء كان سبيله مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم . ولا يخفى عليهم ما كان

فى إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم فى زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم فى تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بها ما فعلوا . وارتفعت الحاجة ، بحمد الله تعالى ، إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم ، فإذا أمعنوا الفكر فى هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنع عريّة . واذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعى المضرة التى كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين . فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين . وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب ، وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها نرضى بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلى بنور الإئتلاف ظلمة الإختلاف والغمة، فتسكن فى سابغ ظلها البوادى والحواضر، وتقر القلوب التى بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر . فإن وفق الله سلطان مصر لإختيارما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والإتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة وتحل الكافة أرضى

الهوينى وروض الهدون (أي السلم والطمأنينة). وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان ، وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واجب الرحمة ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

(كتبت فى أواسط جمادى الأولى)

(سنة احدى وثمانين وستمائة)

(بمقام الإطاق أي بمعسكر السلطان المغولى)

♣♣♣♣♣

جواب السلطان الملك المنصور قلاوون للسلطان أحمد عن رسالته السالفة الذكر

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور

كلام قلاوون إلى السلطان أحمد

أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا للحق منهاجا ، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبى ، نجّى به أمته ، وعلى كل نبى ناجى ، صلاة تنير ما دجا وتنير من داجى ، فقد وصل الكتاب الكريم الملتقى بالتكريم ، المشتمل على هذا النبأ العظيم :

من دخوله فى الدين وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمعلم المعلم والحديث الذى صح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصح الحديث ما روى عن مسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه فى أن يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حَب حُب هذا الدين فى قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية فى أول العمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ، ودخوله فى الملة المحمدية بالقول والعمل والنية ، فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام . وثبت أقدامنا فى كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النوبة فى الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبيرإليه، وإفاضة جلابيب هذه المواقف العظيمة عليه ، وتوقله الأسرة التى طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعُبّاده .

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد فى مجمع قوريلتاي الذى تنقدح فيه زبدة الآراء ، وأن كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه

أهواؤهم فوجده لما فى ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك التقى المشفق من قومه على من بقى، المفكر فى العواقب بالرأي الثاقب ، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لكانت تكون هذه الكرة هى الكرة ، ولكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ، ولا فعل من عوى ، وأما القول منه إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة ؛ فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا انما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت النحول . وبارتفاع المنافرة تحصل المضافرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام منارة فله أهل بأهل فى كل مكان ، وجيران بجيران فى كل أرض . وأما ترتب هذه القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن - أعاد الله من بركاته - فلم نُرَ لولى قبله كرامة كهذه الكرامة ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار الإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعا كأحسن مما كان . ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن فى الوجود ، أن كل حق ببركته إلى العناية يعود .

وأما انفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما فى ابلاغ رسائل هذه البلاغة فقد

حضـرا وأعـادا كـل قـول حسـن مـن حـوالى أحوالـه (أي نفائس أحواله) وخطرات خاطره ومنتظرات نـاظره، ومن كل ما يشكرويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى النفوس فإن كانت لها تطلع الى إقامـة دليل تستحكم بسببه دواعـى الود الجميل، فلينظـر الـى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسـان بالقلـب واللسـان ، والتقـدم بإصــلاح الأوقـاف والمساجد والربط وتسبيل السبيل للحج إلى غير ذلك فهذه صفات من يريد لملكه الدوام ،فلما ملك عدل، ولم يمل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل . علـى أنهـا وان كانـت مـن الأفعال الحسنة والمثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهى واجبات تؤدى وقربات بمثلها يُبَدَى ، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدخر ، بل تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظمها على ما كانت عليه من سلوكها . وقد كان والده فعل شيئا مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وما كـان أحد منهم يدينـه بـدين ولا دخـل معـه فـى ديـن ، وأقـرهم فـى ملكهـم ومـا زحزحهم عن ملكهم . ويجب عليه الا يرى حقا مغتصبا ويأبى الا رده ، ولا باعا ممتدا بالظلم ويرضى الا صده ، حتى إن أسباب ملكه تقوى وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأمـا تحريمـه علـى العسـاكر والقراغـولات والشـحانى بـالأطراف التعـرض إلـى أحـد بـالأذى وإصـفاء مـوارد الواردين والصادرين من شوائب القذى ، فمن حين بلغنـا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيـرة وعنتـاب، وإلـى مقـدمى العسـاكر بـأطراف تلـك

الممالك ، وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق ، وان بسبب من يتزيا من الجواسيس بزى الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرف كان قدحه ، وكم من متزيّ بفقير من ذلك الجانب سيروه ، والى الإطلاع على الأمور سوروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلمَ ولا كيف ، وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلى ظلم الاختلاف وتدر بها من الخيرات الأخلاف ويكون بها صلاح العالم وانتظام شمل بنى آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح للسلم وما حاد وما حاذ . ومن ثنى عنانه المكافحة كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة . والصلح ، وان كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليه قواعده ، ويعلم من مدلوله فوائده ، فالأمور المسطورة فى كتابه هى كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم ، ان تهيأ صلح أو لم . وثم أمور لا بد أن تحكم ، وفى ملكها عقود العهود تنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة التى إذا أوردت أقبلت ، ان شاء الطروس، وأما الإشارة الى الاستشهادبقوله تعالى: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا السبيل ينهج ، بل لفضل المتقدم فى الدين ونصره عهودا ترعى وافادات تستدعى . وما برح الفضل للأولوية وان تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية فى غير مكانها لتروى وتأمل.

وعندما انتيهنا الى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب سمعنا المشافهة التى على لسان أضى القضاة قطب الدين فكان يسلك المؤمنين وما يبسطه من معدله واحسان، مشكورة بلسان كل انسان . فالمنة لله عليه فى ذلك فلا يشبها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله فى حق من امتن بإسلامه : قل لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان.

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما فى يد غيره من ارض وماء ، فإن حصلت الرغبة فى الإتفاق على ذلك فهو حاصل . فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ، ورأي الله والناس كيف يكون تصافينا وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا ، فكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة . ما تم أمر هذا الدين واستحكم فى صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة.فإن كانت له رغبة معروفة إلى الإتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتقاد ركتب الأعداء والأضداد ، والإستناد إلى من يشتد الأمر به عند الاستناد ، فالرأي إليه فى ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما فى يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود ، فالجواب عن ذلك أنه إذا كف العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحقنت الدماء ، وما أحقه بالا ينهى عن خلق ويأتى مثله ، ولا يأمر ببر ونسى فعله ، وكونغوراداي الروم ، وهى بلاج فى أيديكم وخراجها

يجبى إليكم ، وقد سفك فيها وفتك وسبى وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادى على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة أنه ان حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات فيعين مكانا يكون فيه اللقاء ويعطى الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم .فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر . وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا ممن له إلى غير ذلك لفتة وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتى إلا بغتة . والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة .

(تشريف الأنام والعصورلإبن عبد الظاهر٦ ــ ٦)

♣♣♣♣♣

الفصل الرابـع

البيماريستان المنصوري

- نبذة تاريخيــة
- الأوقــاف
- نظام المداواة فى البيمارستان

- التقنيــات العلاجيــة
- الصيدليــة

- أنواع البيماريستانات
  ١- بيماريستان الأمراض العقلية
  ٢- بيماريستان الجزام
  ٣- بيماريستان الطريق
  ٤- بيماريستان السجن
  ٥- البيماريستان الجوّ ال

♣♣♣♣♣♣♣

ـ نبذة تاريخيـــة

البيمارستان كلمة فارسية الأصل تعني المستشفى أو دار المرضى، وهي مركبة من كلمتين: (بيمار) وتعني المريض، و(ستان) وتعني دار. وقد تحولت الكلمة مع مرور الزمن إلى "مارستان" التي لا تزال تطلق الآن على مستشفى الأمراض العقلية.

ويذكرنوشيراواي في كتابه (البيماريستانات الإسلامية فى العصور الوسطي) أن أول بيماريستان فى الإسلام أنشأه الوليد بن عبد الملك فى دمشق عام ٨٦ هـ / ٧٠٧م . لعلاج المرضى ورعاية من يصيبهم مرض مزمن (مثل المجزومين والمكفوفين، الخ) .

وأيام أن كانت أوروبا غارقة فى جهلها وجهالاتها وأطلقت هي نفسها فيما بعد على زمانها ذاك عصور الظلام ، ثم عدلت فأسمته العصور الوسطي ، كانت عواصم ومدن الشرق الإسلامي تبث أشعة أنوارها و تنشر حضارتها على كل البشرية ، وليس فقط على المسلمين . فكانت دور العلم والجامعات تغذي عقول من يلجأ إليها من أي مكان ، سواء فى شرق العالم الإسلامي أو فى الأندلس غرباً.

ومن بين المنارات الحضارية التي حملها الإسلام للعالم المستشفيات التي أطلق عليها فيما مضي (البيماريستان) . ولقد انتشرت البيمارستانات فى العواصم الإسلامية كلها ، بل وفي المدن الإسلامية أو جُلّـا ، وفي التخوم وعلى طرق المسافرين في أرجاء الدولة . واستمرت تلك البيماريستانات تقدم خدماتها الطبية لمن يلجأ إليها ، ويتعلم فيها الدارسون شتي فروع الطب . ومن شاء أن يعرف تلك الحقائق عليه أن يقرأ عن الطبيب الأول الفيلسوف ابن سينا ، وعن ابن النفيس ، وغيرهما من ركب أوائل العلماء الذين أهدوا البشرية عصارة عقولهم التي صقلها الإسلام فى كافة فروع العلم ونكاد أن نقول بلا استثناء . ومن المعروف أن الأوروبي العادي آنذاك كان يخجل من التصريح بأنه لا يعرف اللغة العربية تماما كما يخجل أبناء العرب فى القرن العشرين من التصريح بعدم معرفة الإنجليزية مثلا . كان ذلك هو الحال في صدر الدولة الإسلامية . والأيام دول كما يقولون .

ـــ الأوقــاف

يقول الباحث القدير أحمد تمام فى موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٥ سبتمبر ٢٠٠٦م " ازدهر نظام الوقف في مصر وبلغ أوج ازدهاره في عصر المماليك، وهو العصر الذي يمثل القوة والثراء والعطاء الحضاري في تاريخ مصر في العصر الوسيط. وتسابق إليه كثير من السلاطين والأمراء والتجار، لينهضوا بالمجتمع، حيث أقاموا المؤسسات التعليمية والمساجد والمستشفيات والأسبلة وغيرها، وحبسوا عليها الأوقاف التي تمكنها من تحقيق رسالتها .

وحسبك أن تعلم أن معظم ما يتعلق بالتعليم والثقافة كان مما يمول عن طريق الأوقاف، يدخل في ذلك الوقف على الأزهر وعلى المدارس والمساجد والكتاتيب، وعلى طلبة العلم والإنفاق عليهم؛ الأمر الذي أعطى لمؤسسات التعليم قدرا من الاستقلال والمحافظة على استقرار نظم التعليم، والابتعاد به عن تقلبات السياسة وأهوائها .

وقدم الوقف في هذا العصر الزاخر خدمات طبية ورعاية صحية للناس جميعا، ويقف البيمارستان المنصوري شاهدا على ما يمكن أن يقوم به الوقف من خدمات إنسانية، وكان يمثل في عصره أعظم منشأة طبية في العالم آنذاك، ولم يقتصر دوره على معالجة المترددين عليه، بل تعداه إلى معالجة المرضى الفقراء في بيوتهم، وصرف ما يحتاجون إليه من أدوية وأغذية دون مقابل .

وكان لكثرة الأوقاف التي أوقفها السلطان المنصور قلاوون على بيمارستانه أثر كبير في استمرار العمل به، وانتظام تقديم خدماته الصحية والاجتماعية لمختلف فئات المجتمع، ويذكر السخاوي أن الفائض من ريع أوقاف البيمارستان بلغ في سنة (٨٥١ هـ/١٤٤٧م)، أي بعد مرورما يقرب من قرنين من إنشائه حوالي ١٤ ألف دينار ".

ـ نظام المداواة فى البيمارستان

يخصص لكل مريض بطاقة خاصة به يدون عليها الطبيب ملاحظاته أثناء العلاج. كما أن هناك سجل خاص للطبيب يدون فيه الأمراض التي يتعامل معها ، ويقوم بإجراء تجاربه وفحوصاته بناء على ملاحظاته . وإذا ما واجهت الطبيب أية مشكلة فى أية مسألة تتعلق بالتشخيص ، يلجأ إلى رئيس القسم الخاص به أو الى كبير الأطباء . وكان الأطباء دائما ما يجتمعون لمناقشة الحالات ، ولا شك فى أن تلك الإجتماعات والإستشارات كانت تعتبر مؤتمرات علمية صغيرة للأطباء . وهذا ما يجري فى أيامنا هذه .

ونلاحظ أن مؤرخي الطب العربي أفاضوا فى الحديث عن الشخصيات الطبية التي كانت المناقشات تدور حولهم ، ولكي يوضع نظام العمل بالمستشفي أو البيماريستان . فكانت هناك نوبات للأطباء ، يعمل البعض صباحا وآخرون ليلا والبعض كان يعمل فى أوقات معينة من الصباح والبعض فى أوقات معينة من الليل وبذا كانوا يولون كل الإهتمام بالمريض . وفى ذات الوقت يأخذون قسطا كافيا من الراحة يساعدهم على مواصلة العمل وملاحظة نظام العلاج والرعاية الطبية .

ويذكر المقريزي فى خططه أن المرضي كانوا يسجلون عند دخولهم البيماريستان ، وتنزع عنهم ملابسهم ، وتوضع أموالهم لدي الخزانة التي يشرف عليها أمين خزانة البيماريستان . ويتلقى المرضي ملابس نظيفة بدلا من التي خلعوها ويمنحوا الطعام والدواء مجانا إلى أن يتم شفاؤهم .

ويصف ابن الأكوع فى كتابه (الحسبة) دخول المريض فى العيادة الخارجية لمقابلة الطبيب، فيقول فى نص غاية فى الأهمية "... يسأل الطبيب المريض عن سبب علته والآلام التي يشعر بها ، ويقوم بإعداد أشربة علاجية وعقاقير ، ثم يكتب نسخة من الوصفة الطبية يعطيها لوالدي المريض الحاضرين مع المريض . وفى اليوم التالي يفحص المريض وينظر فى العقاقير ويسأله إن كان يشعر بتحسن أم لا ، ثم يسدي اليه النصح بناء على حالته . ويتكرر هذا الإجراء فى اليوم الثالث والرابع ... الى أن يتم شفاء المريض أو توافيه المنية ، فإذا ما شفي المريض ، يأخذ الطبيب

أجره . وإذا مات المريض يذهب الوالدان الى كبير الأطباء ويقدمان له الوصفات الطبية التي كتبها الطبيب ؛ وإذا ما رأي كبير الأطباء أن الطبيب أدي واجبه على أكمل وجه بلا اهمال يخطر الأبوين أن الوفاة طبيعية ، وإذا ما رأي خلاف ذلك يقول لهما : خذا الديّة من الطبيب الذي قتله لإهماله وتقصيره فى واجبه . وبهذه الطريقة النبيلة يتوفر اليقين من أن الأشخاص المدربين تدريبا جيدا يمارسون الطب على وجهه الأكمل .

ـ التقنيات العلاجية

(١) وتظهر السجلات التي عثر عليها أن هناك أجورا ورواتب للموسيقيين كانت تدفع كجزء من الرعاية الصحية ؛ إذ كان الكثير من الأطباء العرب يوصون بالعلاج الموسيقى *musicotherapy* ، خاصة علاج مرض الملانخوليا أو الكآبة وقد دام استخدام العلاج الموسيقي فى الطب الإسلامي لعدة قرون . وقد وصف الفارابي ما تتركه الـ " ماكاملار" (يعني الموسيقى التركية الكلاسيكية) على معنويات المرضي . كما كتب الموسيقي ابن بوطلان : "إن أثر اللحن على الذهن المضطرب كأثر الأدوية على الجسم المريض" .

(٢) كما كانت هناك أجور ورواتب تدفع للقصّاصين الذين اعتادوا على قراءة القرآن فى داخل البيماريستان صباحا ومساء.

(٣) ويبدو أن العلاج كان يضم كذلك الرقص والتمثيليات المسرحية والحفظ كجزء من العملية العلاجية .

(٤) كما كان العلاج يتضمن عمل الكمّادات وخاصة على الرأس ، والحمامات ، والفصد *bloodletting* ، والحجامة *cupping* ، والضمادات ، ودهان الجسم بشتى أنواع الزيوت والكمادات .

(٥) وساد الإعتقاد بأن رائحة الورود تصل إلى المخ وتؤثرفيه وخاصة الريحان، وقد ارتأي الباحثون أنه من الممكن للريحان أن يكون بمثابة وسيلة مضادة للإكتئاب ومهدئة وأن شذاه له آثار إيجابية على الذهن .

ـ الصيدليــة

ودائما ما كانت هناك صيدلية ملحقة بالماريستان ، تسمي "شراب خانة" وفى الإمكان أن تكون بمثابة "مستوصف" . وكان الصيدلي "*saydalani*" يعطي العقاقير بناء على وصفة الطبيب الطبية . وكشأن المستشفي كمؤسسة ، كانت الصيدلية كمؤسسة متطورة تطورا عظيما فى العالم الإسلامي .

وكما يظهر فى النصوص الطبية فى العصور الوسطي كانت العقاقير المستخدمة فى علاج الأمراض العقلية عادة نباتية فى الأصل ، وكانت تتضمن أنواع المسهلات المضغوطة ، والمسكنات (خاصة الخشخاش أو الأفيون) ، والعقاقير المساعدة على الهضم ، وتلك المساعدة على القيئ . وكانت تستخدم كعقاقير بسيطة وكعقاقير تركيب ، وكانت تستخدم لإثارة حالات فتور الأعصاب ، ولتهدئة المرضي المهتاجين ، وتقوية مرضى الإكتئاب .

وكانت الصيدليات تضم أدوات ثمينة وأوعية زجاجية وأوعية الخزف الصيني والأوعية المعدنية .

ـ أنواع البيماريستانات

أدرك المسلمون فى صدر الدولة الإسلامية شتي أشكال وأغراض التي ينبغي وضعها فى الإعتبار فى البيماريستانات . ومن الطبيعي أن يتناولوا هذ الموضوع بما يكفى من االجدية بسبب أهميتها للمريض وللطبيب ولدرجة العناية المطلوبة للمريض. ولا بد أن كل نوع من الأمراض كان يتطلب تخصيص بيمارستان خاص لمجموعة

من المرضى ، وفى الإمكان ، على الأقل ، ملاحظة البيماريستانات المتخصصة لمرضى الجزام ومرضى الإضرابات الذهنية .

١ـ بيماريستان الأمراض العقلية

تحقق المسلمون من أهمية رعاية مرضى الإضطرابات الذهنية . ودائما ما كانوا يضيفون أماكن خاصة فى البيماريستان الكبير ، معزولة بقضبان حديدية ، لمرضى الإضطرابات الذهنية ، للحيولة دون اعتداء المرضي على غيرهم . وكان الأطباء المسلمون يعلمون أن الأمراض العقلية تتطلب نوعا خاصا من الرعاية ، وأن طبيب تلك الأمراض ينبغي أن يكون على دراية بمسببات المرض الذي يعاني منه المريض.

ومن المعروف أن ابن أبي أُصَيْبعة قد اشتهر بكتابه الذي أسماه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) والذي يعتبر من أمهات المصادر لدراسة تاريخ الطب عند العرب. ويستشف من أقوال ابن أبي أصيبعة نفسه أنه ألف ثلاثة كتب أخرى، ولكنها لم تصل إلينا، وهي: (كتاب حكايات الأطباء في علاجات الأدواء)، وكتاب (إصابات المنجمين)، وكتاب (التجارب والفوائد) الذي لم يتم تأليفه.

ومن الجدير بالذكر أن إبن أبي أصيبعة يخبرنا فى كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عن بعض حالات هذا النوع من المرض وكيف تمكن الطبيب الماهر وحيد الزمان من علاجها . فقد ظن أحد المرضى أن هناك جرّة فخارية كبيرة على رأسه لا تتركه أبدا، وكان يخشى أن تقع الجرة وتتكسر أثناء سيره ، ولذا كان يمشي بحذر شديد حتى لا تقع من فوق رأسه وتتكسر . وحاول بعض الأطباء علاجه لكنهم فشلوا ، وأخيرا شاهد وحيد الزمان الذي تحقق من أن الرجل يعانى من الأوهام ، فطلب من أسرته إحضاره الى المستشفي ، وأمر وحيد الزمان أحد صبيانه أن يحضر عصا كبيرة ويضرب بها الجرّة أثناء قيام وحيد الزمان بالحديث معه والادعاء بأنه يريد أن يكسر الجرة التي يتوهم الرجل أنه يحملها على رأسه ، وفى ذات الوقت أمر صبيا آخر بأن يلقي بجرة كبيرة أخري من فوق السطح الى الأرض فى نفس اللحظة

التي يقوم فيها الصبي الأول بالضرب فوق رأس المريض المكتئب . وعندما جاء المريض بدأ وحيد الزمان في التحدث معه منكرا أنه يحمل جرة ، وأعطي إشارة الى الصبي فبدأ يضرب فوق رأس المريض بالعصا الخشبية ، وفي تلك اللحظة رمي الصبي الأخر الجرة الكبيرة من فوق السطح فأحدثت دويا كبيرا وتحطمت متحولة الى أجزاء وشظايا كثيرة. وعندما شاهد المريض ما حدث له والجرة المكسورة ، لم يتطرق اليه شك في أنها كانت الجرة التي كان يحملها ــ في وهمه ــ فكان لذلك تأثيره وشفي من مرضه.

٤ـ بيمارستان الجزام

يتم بناء هذا البيمارستان لمرضى الجزام خصوصا . وأول من كتب كتابا عن الجزام هو يوهان بن ماساوي . ولقد نشأ الإهتمام بهذا المرض بسبب فكرة المسلمين عن عزل المرضي المصابين بأمراض معدية عن باقي المجتمع . ويقوم أطباء اليوم باتباع نفس التصرف فيما يتصل بهذا المرض.

٥ـ البيمارستان الجوّ ال

كان هذا النوع من البيمارستانات يزور القري ، والتخوم والمدن النائية لتقديم الرعاية الصحية للمقيمين بعيدا عن عاصمة الدولة وبذا ييسر وصول خدمات الدولة إلى أي فرد في حاجة الى علاج في الدولة .

وأمر علي بن عيسي الجراح ـ وهو وزير المقتدر ـ كبير أطباء الدولة سينان بن ثابت في رسالة مكتوبة ، بأن يسافر الأطباء إلى تخوم الدولة . وقال في رسالته : "لقد فكرت في الناس المقيمين في التخوم ومن بينهم مرضى لا يتلقون أية رعاية طبية لعدم وجود أطباء هناك . ولذا فلتعين ــ أمد الله في عمرك ــ بعض الأطباء لزيارة التخوم ؛ وكذلك صيدلية فيها العقاقير والشراب . وعليهم أن يمروا بالتخوم

كلها ويمكثوا فى كل منطقة ما يكفي من الوقت لعلاج المرضي ، ثم ينتقلون إلى منطقة أخري" .

وكانت رعاية البيماريستانات تقع على مسؤلية الدولة ، وكان كبار الأطباء على دراية بوضع قواعد العمل وأسس تعليم الطلبة الذين جاءوا ليتعلموا الطب من شتي الأنحاء . ولذلك أنشئت مدارس الطب فى العالم الإسلامي حيث كان التعليم يتم بطريقتين : (١) الطريقة النظرية فى المدارس الطبية ؛ (٢) الطريقة العملية للتدريب والممارسة حيث يتجمع الطلاب حول الطبيب ليروا ويفحصوا المرضي والعلاج الموصوف .

وعندما ينهي الطلاب فترة الدراسة يجري لهم امتحان ، ويحلفوا يمينا ، ويتسلموا شهاداتهم . وعندما يبدأون فى ممارسة الطب دائما ما يعملون تحت اشراف الدولة . وهذا يعني طبعا أن البيماريستانات كانت مؤسسات لتعليم الطب ولإستكمال الدراسة للأطباء الصغار.

ومن وجهة نظر عملية كان الأساتذة يصفون العلاج للمرضى بعد فحصهم فى وجود الطلاب المتتلمذين على أيدي الأساتذة ويكتبون تعليماتهم . ويقوم الطلاب بتنفيذ تلك التعليمات بطريقة منظمة وكانوا يتابعون المرضي ومن هنا يكتسبون الخبرة العملية الضرورية المطلوبة لطالب الطب . ويمكن عرض الإسهام الإسلامي فى مجال الطب من خلال ثلاث نقاط هي : (١) التجمعات الطبية ، (٢) البيماريستان ، (٣) الطريقة التي كانوا يتبعونها .

٣ـ بيماريستان الطريق

عرف العرب هذا النوع من البيماريستانات وتحققوا من أهميته لأن الحجاج الذاهبين الى الأماكن المقدسة ، أو القوافل التجارية المسافرة لمسافات بعيدة ، تتطلب توفير الرعاية للمسافرين ، مثل علاج الجرحى أو إنقاذ شخص من طالبي النجدة .

لذلك ، زودوا القوافل بوحدات طبية تضم أطباء وصبيان يساعدونهم . ...
ويشير ابن كثير فى البداية والنهاية إلى أن بيماريستانات الطريق كان يديرها أطباء حكماء يعرفون كيف يقدمون العلاج ، وكان الأثرياء يمولون تلك البيماريستانات .

٤- بيماريستان السجن

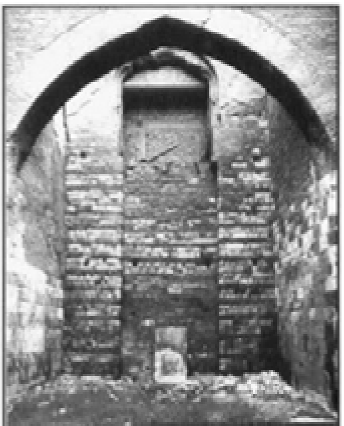
اعتني المسلمون عنايتهم الطبية بالمسجونين تماما كما كانوا يعاملون غير المسجونين خارج الأسوار . ويتضح ذلك من رسالة الوزير عيسى بن على الجراح وزير المقتدر إلى سنان بن ثابت الطبيب النتاسي الذي كان من جهابذة الطب العربي والذي اعتنق الإسلام على يدي القاهر. وبعد أن زار عيسي بن على السجون وجد أنه من الضروري علاج المرضى والحفاظ على إنسانيتهم ، ولذا أرسل رسالته الشهيرة إلى سنان قال فيها : "فكرت فى المساجين ـ حفظك الله ـ وهم معرضين للأمراض كثرة أعدادهم ولحالهم الصعب ؛ وهم غير قادرين على التعامل مع برازهم أو مقابلة الأطباء ليحصلوا على نصائحهم حيال أمراضهم . وعليك ـ أكرمك الله ـ أن تخصص أطباء يزورونهم يوميا ويحملون معهم عقاقير وشراب وكل احتياجاتهم علاج المرضى والتعامل مع المرض بإذن الله . وعمل سنان بتلك النصيحة " . وكذلك ، وبناء على ما ذكره ابن الكفتي ، طلب المقتدر من سينان بن ثابت بناء بيمارستان وأن يطلق عليه اسمه . وأمر بإنشاء واحد عند باب الشام وأن يطلق عليه بيمارستان المقتدر ومولـه بماءتي دينار شهريا . كان ذلك فى عام ٣٠٦ هـ وتم تعيين سينان بن ثابت كبير الأطباء . وعندما قالوا للمقتدر إن أحد أطبائه قتل رجلا خطأ أمر سينان اجراء اختبار للأطباء . وهكذا اختبروا فى بغداد وأصبح عددهم ثمانمئة طبيب .

كان سينان بن ثابت هو الذي موّل بيمارستان السيدة ، وبحسب ما قاله ابن الكفتي " فى أول المحرم من عام ٣٠٦ للهجرة افتتح سينان بن ثابت بيمارستان السيدة فى سوق يحي وأقام به ونظّم عمل الأطباء فيه . وكان يوسف بن يحي المنجم ينفق مبلغ ٦٠٠ دينار كل شهر على البيمارستان لأن سينان لم يسهم فى مصروفات البيمارستان .



Shadirwan or Salsabil: A slanted, pebbled slab on the wall with the water gurgles down to be collected in a central fountain

سلسبيل : بلور صخري مائل على الحائط
تترقرق على سطحه المياه
إلى قناة حيث تتجمع في نافورة في الوسط



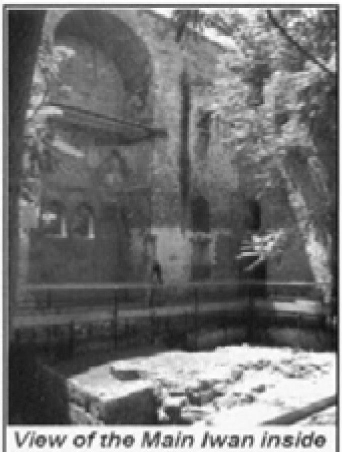
Remains of an iwan
Bimaristan of al-Mansur Qalawun

بقايا إيوان ملحق
ببيمارستان المنصور قلاوون



Main Hall with Shadirwan and water channel

الردهة الرئيسية وفيها السلسبيل
والقنـــاة المائيـــة



View of the Main Iwan inside the Palace as it stands today.

منظر للإيوان الرئيسي داخل القصر
كما هو اليـــوم



Bimaristan al-Nuri
of Nureldin Zenki



Bimaristan al-Mansuri
of Almansour Qalawun



من أشهر البيمارستانات في القرن ٤ هـ / ١٠م

وكانت تلك البيمارستانات تسيروفق نظام دقيق وترتيب غاية في الإحكام، فهي تنقسم إلى قسمين منفصلين، أحدهما للذكور والآخر للإناث، ويضم كل قسم قاعات فسيحة لمختلف التخصصات الطبية كالأمراض الباطنية، والجراحة، والكحال (الرمد)، والتجبير (العظام).

ولكل قسم من هذه الأقسام مجموعة من الأطباء الاختصاصيين في مختلف فروع الطب يتناوبون العمل فيما بينهم، ويقوم على كل طائفة منهم رئيس لإدارتها وتفقد أحوال المرضى، ويعاون الأطباء مساعدون من الممرضين والمشرفين والخدم يقومون على خدمة المرضى وتقديم الطعام والعلاج لهم.

وإلى جانب هذا النظام الداخلي لعلاج المرضى كان يوجد عيادات خارجية تقوم على خدمة المرضى وعلاجهم مما لا تحتاج حالتهم إلى استبقائهم داخل البيمارستان، فكان الطبيب يجلس على دكة، يكتب لمن يرد عليه من المرضى أوراقا يعتمدون عليها، ويأخذون بها الأدوية والأشربة من صيدلية البيمارستان ليتابع العلاج في بيته، وهي تعد جزءًا مهمًا من مرافق البيمارستانات يقوم عليها الصيادلة، وتحتوي على أنواع مختلفة من الأدوية والأشربة والمعاجين.

ومن المفيد هنا أن نقتبس نص رسالة من مريض أوروبي كان يعالج فى إحدي مستشفيات قرطبة بالأندلس أرسلها الى أبيه يقول فيها :

> "بعد أن فحصوني وسجلوا إسمي ، عرضوني على رئيس الأطباء ، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال حيث جعلني فى حمام ساخن وتولي عملية استحمامي، وألبسني ثيابا نظيفة . وعند وصولك الى هذه المستشفى تجد إلى اليسار مكتبة كبيرة وقاعة ضخمة يحاضر فيها رئيس الإطباء حيث يتعلم منه الطلاب . وإذا نظرت خلفك تجد ممرا يؤدي الى قسم النساء ، ولذلك يتعين أن تظل سائرا نحو اليمين ، حيث تمر بالقسم الداخلي والقسم الخارجي ،

وعندما تسمع موسيقى أو غناء ينبعثان من قاعة من القاعات ادخلها وانظر فيها ، فربما كنت أنا فيها فى قاعة النقاهة حيث تشنّف الموسيقى الجميلة آذاننا وتسعد عقولنا بالمطالعة المفيدة . وفي صباح اليوم جاء رئيس الأطباء كعادته مع جمع كبير من مساعديه ؛ ولمّا فحصني أملى على طبيب القسم شيئا لم أفهمه ، وبعد ذهابه أفهمني الطبيب أن بإمكاني الخروج قريبا من المستشفى ، بعد أن ثبت أن الجسم سليم لا عيب فيه ، وإنني والله أكره الخروج، فكل شئ جميل جدا ونظيف للغاية ، فالأسرّة وثيرة وأغطيتها من الدمقس الأبيض ، والملاءة ناعمة للغاية وبياض لونها كالحرير. وفى كل غرفة من غرف المستشفى تجد الماء جاريا فيها على أشهي ما يكون وفي الليالي القارسة تدفأ كل الغرف...."

شمس الله تشرق على الغرب

للمستشرقة الألمانية زيجريد هونكه

German Orientalist Zegred Honke:

.God's Sun Rise on the West

وكانت الأوقاف ترصد لتلك البيمارستانات ؛ للصرف من ريعها على رواتب الأطباء والعاملين، علاج المرضى، وخصص لإدارتها ناظر يقوم على أمرها وعلى الأموال والأوقاف المخصصة لها، وكان هذا المنصب من الوظائف الديوانية العظيمة في الدولة لا يُختار له إلا الأكفاء من ذوي القدرة والأمانة.

ولقد وصف ابن بطوطة البيماريستان المنصوري وقال إنه يعجز الواصف عن محاسنه ؛ إذ كان مقسماً إلى أربعة أقسام : الحميات والرمد والجراحة والنساء وخصص لكل مريض فرش كامل، وعين له الأطباء والصيادلة والخدم، كما زود بمطبخ كبير.

وكان المريض إذا ما برئ وخرج مُنح منحة وكسوة، وقدرت الحالات التي يعالجها المستشفى في اليوم الواحد بعدة آلاف، وألحقت به مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء لإلقاء الدروس.

والوثيقة التاريخية التي ترجع إلى عهد المماليك بمصر تبين بجلاء تلك النماذج المشرقة لأوقاف المسلمين لإقامة المشافي وعلاج المرضى، فتقول الوثيقة: أنشئ هذا المارستان (مستشفى قلاوون) لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء الموسرين والفقراء المعوزين بدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة من المقيمين بها والوافدين عليها على اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم، يدخلون جماعة وفراداً، وشيباً وشباناً ويقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم لحين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق على البعيد والقريب والأهل والغريب، ويصرف الناظر من ريع الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرر جريد أو خشب على ما يراه مصلحة – أو لحف محشوة قطناً، فيجعل لكل مريض من السرر والفرش على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم بتقوى الله وطاعته، باذلاً جهده وغاية نصحه، فهم رعيته وكل راع مسؤول عن رعيته.

ويباشر المطبخ بهذا البيمارستان ما يُطهى للمرضى من دجاج وفراريج ولحم، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في زبدية خاصة به من غير مشاركة لمريض آخر ويغطيها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفى كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشياً.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في (دستور ورق) ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين ومتناوبين ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها، ومن كان مريضاً في بيته وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشربة والأدوية والمعالجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف.

سنة الإحتفالات ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م

ودخلت سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م فشهدت اكتمال البيماريستان والمدرسة المنصورية والقبة الشريفة وسبيل القاهرة ، وتم ذلك فى فترة قصيرة جدا ، وهكذا شعر الناس بالسرور والحبور وأخذوا يتوافدون على تلك المباني وقد أخذ منهم الفتون والعجب والإستحسان ، وراح الشعراء يمتدحون هذا الذي لم يألفوه من قبل ·

بني ما بني كسري وما قلت مؤمن ... بناها به فيما بنـــاه كفــور
ودك على تقوي الإلــه أساســـه ... كما دك بالوادي المقدس طـور
فمنهــا نجــوم فى بروج مجــرة ... على الأرض تبدو تارةً وتغور
ومئذنة كالنجم تشرق فى ا لدجـي ... عليهــا هدي للعالمين ونــور
فكم حسدتها فى الكمال كواكـــب ... وغارت عليها فى العلو بــدور
وقبـــة مارستـــان ليس لعلــــة ... عليه وإن طال الزمان مــرور
ومدرســة ودّ الخــورنــق أنــه ... لديهــا حضير والسدير غديــر
تبدّت فأخفى الظاهرية نورهـــا ... وليس يظهر للنجوم ظهـــور
سمـــاوية أرجاؤها فكأنمــــــا ... عليها من الوشي البديع ستـور
وما تلك للسلطـــان إلا سعـــادة ... يـدوم لـه ذكر بهـــا وأجـــور
وما جنة الفردوس فى الأرض غيرها ... ولا فلـك فيه النجـوم أثيــــر
فلا زال مبنيّــا به العلم والتقــي ... ومنهدمــاً كفــر علا وفجـور
ولا زالت الأفلاك طوعا بكل مــا ... يريد على رغم العــدو تــدور

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية)
(لبيبرس المنصورى، الصفحتان ١١١ــ ١١٢)

الفصل الخامس

قلاوون في ميادين القتال

يجاهـــــد

١ـــ الظاهريّـــة

٢ـــ التمـــــرد

٣ـــ المغـــول

٤ـــ الصليبيـــين

ـ ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م انتزاع شيزر وصهيون

ـ ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م معركـة حمـص

ـ ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ الإسنيلاء علي قلعة المرقب

(نبذة تاريخية ، الحصار ، الإستيلاء على القلعة)

ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ احتفالات الفرنج فى صيدا وعكا

ـ ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ تيكودار المغولى يعتنق الإسلام

(ويسمى أحمـد ، ويعقد معاهدة مع قلاوون ويُغتال)

ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ الإستيلاء على الكـــرك

ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م الإستيلاء على صهيون

ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م الإستيلاء على اللاذقيـة

ـ ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م مع الصليبيين فى عكا وطرابلس

(وراثـة طرابلس ـ الأميرة لوتشيا وريثة أخيها بوهمند)

(معارضة الكوميون ـ انتشار الخلافات بين الصليبيـين)

ـ ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م الإستيلاء على طرابلس

لـم تقتصـر جهـود هـذا السـلطان العظـيم علـى العمـارة وإنشـاء المـدارس والبيماريسـتان وغيـر ذلـك مـن أوجـه بنـاء الحضـارة ، كمـا لـم تقتصـر علـى ابـرام المعاهدات وعقد وتجديد الهدنة مع القوي الخارجية ، كما لم يغب عن ذهنـه أن هناك عدوين شرسين يتبرصان بدولتـه وبالمسلمين كافة ، ألا وهما المغول والصليبيين .

ومـن أجل ذلك بدأ بالقضـاء علـى الفتن الداخليـة كمـا جـاء ذكـره فـي الفصـل الثاني ولم يغفل محاولات الظاهرية الإستنثار بالشام واتصالهم بسنقر الأشقر المتمرد. فشمر عن ساعده وخرج إلى الشام وكلـّف الأمير بـدر الـدين بكتاش الفخـري بالسير الى صـهيون :

ـ ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م انتزاع مدينتي شيزر وصهيون

حـاول الأمير بـدر الـدين احـتلال صـهيون إلـى أن أشرف علـى أخذ الحصـن عنوة وكان أن سلمها سنقر دون قتال ووصـفها أبـو الفداء في منتصف القرن الرابـع عشر:

ومدينـة صـهيون بلدة ذات قلعـة حصـينة لا تـرام مـن مشـاهير معاقل الشـام و بقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار و هي على صخر أصم و بالقرب منها واد به من المحمضات ما لا يوجد مثله في البلاد و هي من ذيل الجبل من غربيه تظهر من عند اللاذقية.

> "........... وفيها توجه الأمير سيف الدين ايتمش السعدي والأمير سيف الدين بلبـان الهـاروني والأمير سيف الـدين كراء التتري وجماعة من أصـحابهم إلـى صـهيون ولحقـوا بسنقر الأشقر، فجرد السلطان عسكرا وف طلبهم صـحبة الأميـر بـدر الـدين بكتـاش الفخـري ، أميـر سـلاح ، فلـم يـدركوه . ووصـل السلطان إلـى دمشـق فدخلها وهـو أول دخوله إليها سلطانا ، فزينـت المدينـة أحسـن زينـة ، وأنفـق فـي العسـاكر ، واتمـال بإحسـانه الخـواطر . وأرسـل إلـى سنقر الأشقر يطالبه بتسـليم شـيزر ، فإنـها كانـت باقيـة فـي

يده مع حصون أخر كانت قد أطاعته فى ذلك الوقت وهي برزاي وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار ، فأجاب إلى تسليم شيزر. وتقرر أنه يقيم على هذه البلاد ستمائة فارس للجهاد. وحصل الإتفاق على ذلك وحلف عله وأرسل نسخة اليمين صحبة الأمير علم الدين سنجر الدواداري فحلف له السلطان وكتب تقليده منعوتا فيه بالإمرة وانتظم معه الإتفاق وانقطعت دواعي الشقاق "

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية)

(لبيبرس المنصوري ، الصفحتان ٩٧ و٩٨)

ـ ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م معركـة حمص

كان خان المغول الرابض فى العراق متلهفا على الإنقضاض على الجيوش الإسلامية فى الشام قبل أن يتمكن السلطان قلاوون من ترسيخ وتعزيز أوضاعه هناك ، وخاصة وأن سنقر الأشقر كان ما يزال على دعوته للإنفصال بالشام عن قلاوون ، إلى أن عبر المغول نهر الفرات فى نهاية شهر سبتمبر ١٢٨٠م ، واحتل عينتاب وبجراس ودربساك، وفى ٢٠ أكتوبر دخل حلب ، ونهب أسواقها وأشعل الحرائق فى مساجدها وأشاع الذعر فى سكان المقاطعات وهربوا باتجاه الجنوب إلى دمشق . وفى نس الوقت خرج من حصن المرقب فرسان المستشفى الصليبيين وأغاروا على البقاع وانتهبوها وكادوا يصلون الى قلعة الكرك ، وأثناء عودتهم تصدي لهم جيش إسلامي بالقرب من مرقية فهزموه .

على أن المغول لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الإحتفاظ بحلب ، وما أن علموا بمسير قلاوون بجيوشه من دمشق حتى انسحبوا وعبروا الفرات عائدين ، أما قلاوون فاكتفي بإرسال قوة لمعاقبة فرسان المستشفى ، لكن هذه القوة انهزمت أمام حصن المرقب المنيع .

وفى نفس ذلك الوقت تقريبا ظهر سفير مغولى فى عكا ناقلا اقتراح الخان إرسال مائة ألف رجل إلى سوريا فى الربيع التالي ، ورجاهم تعزيز الجيش بالرجال والمؤن . وأحال فرسان المستشفى الرسالة إلى الملك إدوارد فى انجلترا ، أما فى عكا فلم تكن هناك استجابة . وخشي قلاوون من أنباء الغزو المغولى القادم فتصالح مع سنقر الأشقر فى شه يونية ١٢٨١م

تظاهر سنقر الأشقر با٠لعودة ، ووقف إلى جانب قلاوون لرد الهجوم المغولي وهو ما كان باديا للكافة أنه العدو المشترك و كان الصلح بينهما عام ١٢٨١م حيث تنازل سنقر مقابل بعض لإمارات الشمالية عن قلعة شيزر و بقيت السلطة الشرعية بيد قلاوون

"وفي شهر سبتمبر توغل جيشان مغوليان فى داخل سوريا، كان الخان يقود أحدهما بنفسه وتمكن من إخضاع القلاع الإسلامية بطول الحدود مع نهر الفرات ، بينما كان يقود الثاني أخو الخان ، مانغو تيمور، الذي بدأ بالإتصال بليو الثالث ملك أرمينيا ثم سار جنوبا خلال عينتاب وحلب إلى داخل وادي العاصي . وكان قلاوون قد ذهب إلى دمشق حيث جمع قواته ثم سارع إلى الشمال . وانتحى الفرنج جانبا فيما عدا فرسان المعبد فى المرقب الذين رفضوا الإلتزام بالهدنة التي عقدها نظامهم الديني العسكري فى عكا ؛ وسار فرسانهم للإنضمام إلى ملك أرمينيا . وفى ٣٠ أكتوبر تقابل الجيشان المغولى والمملوكي خارج حمص مباشرة . وكان مانغو تيمور يقود قلب المغول ، وعلي ميسرته أمراء مغوليون آخرون ، وعلى ميمنته قوات احتياطية جورجية مع الملك ليو وفرسان المستشفي . وكانت ميمنة المسلمين تحت قيادة المنصور صاحب حماه ، وكان قلاوون يقود بنفسه المصريين فى القلب، وإلى جانبه جيش دمشق بقيادة

الأمير لاجين ، وفى ميسرته سنقر الأشقر ومعه أبناء سوريا الشمالية والتركمان .

وما أن نشبت المعركة حتي نجح المسيحيون فى ميمنة المغول فى اقتلاع سنقر من مكانه وطاردوه إلى داخل معسكره فى حمص ، وبذا فقدوا الإتصال بمركزهم . وفى ذات الوقت ، وعلى الرغم من صمود ميسرة المغول ، جُرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مملوكي على القلب ؛ وتخلت عنه رباطة جأشه فأمر بانسحاب متعجّل ؛ فوجد ليو ملك ألامينيا ورفاقه أنفسهم فى عزلة فكان عليهم أن يشقوا طريقهم عائدين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وطارد قلاوون الأرمن . وعاد الجيش المغولي عبور نهر الفرات بلا مزيد من الخسائر، وبقى النهر العظيم بمثابة الحدود بين الإمبراطوريتين ، وفم يغامر قلاوون بمعاقبة الأرمن "

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(تأليف ستيفن رانسيمان ، الصفحتان ٤٥٤ و٤٥٥)

وكانت ميمنة التتارقد حملت على ميسرة المسلمين ووصلت مرج حمص ، وبينما هم ينتظرون أصحابهم على ظنهم منتصرين ، جاء الخبر بأنهم قد ولوا منكسرين ، فركبوا لوقتهم مسرعين وانكفأوا منقلبين ، وكل ذلك والسلطان واقف فى موقفه لم يبرح ، ثابت فى مكانه لم يتزحزح ، فعبرت عليه ميسرة التتار راجعة تجر ذيول الهزائم ، ..... وعاد السلطان إلى دمشق والتتار يساقون فى الكبول ..... فسارت بهذه النصرة العظيمة الأخبار ونظمت فيها قصائد وأشعار ، فكان مما قيل هذه الأبيات :

الأمير لاجين ، وفى ميسرته سنقر الأشقر ومعه أبناء سوريا الشمالية والتركمان .

وما أن نشبت المعركة حتي نجح المسيحيون فى ميمنة المغول فى اقتلاع سنقر من مكانه وطاردوه إلى داخل معسكره فى حمص ، وبذا فقدوا الإتصال بمركزهم . وفى ذات الوقت ، وعلى الرغم من صمود ميسرة المغول ، جُـرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مملوكي على القلب ؛ وتخلت عنه رباطة جأشه فأمر بانسحاب متعجّل ؛ فوجد ليو ملك ألامينيا ورفاقه أنفسهم فى عزلة فكان عليهم أن يشقوا طريقهم عائدين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وطارد قلاوون الأرمن . وعاد الجيش المغولي عبور نهر الفرات بلا مزيد من الخسائر، وبقى النهر العظيم بمثابة الحدود بين الإمبراطوريتين ، وفم يغامر قلاوون بمعاقبة الأرمن "

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(تأليف ستيفن رانسيمان ، الصفحتان ٤٥٤ و٤٥٥)

وكانت ميمنة التتارقد حملت على ميسرة المسلمين ووصلت مرج حمص ، وبينما هم ينتظرون أصحابهم على ظنهم منتصرين ، جاء الخبر بأنهم قد ولوا منكسرين ، فركبوا لوقتهم مسرعين وانكفأوا منقلبين ، وكل ذلك والسلطان واقف فى موقفه لم يبرح ، ثابت فى مكانه لم يتزحزح ، فعبرت عليه ميسرة التتار راجعة تجر ذيول الهزائم ، ..... وعاد السلطان إلى دمشق والتتار يساقون فى الكبول ..... فسارت بهذه النصرة العظيمة الأخبار ونظمت فيها قصائد وأشعار ، فكان مما قيل هذه الأبيات :

نشرت بنصرك للعلى أعـــلام   يامن تفاءل باسمه الإســلام
وبدا على وجه الهدي نور غــدا   منه على وجه الظلال ظلام
السيد المنصور والملـــك الذي   يعنو لشدة بأسه الضرغــام
فالله جارك من مليـــك عزمــه   عزم يفل السيف وهو حسام
لما سمعت بجحفل المغــل الذي   وطئ الشام وقصده الإهزام
بادرت نحوهم بجمـــع حفـــه   سعد له النصر العزيز إمــام
جيش يضيق به الفضاء عرمرم   كالبحر زخار العباب نهــام
وقصدت خالد بقعة ضربت بها   عدد النجوم الزاهرات خيام
حتى أتي يوم الخميس خميسهم   وكأنه تحـت القتـام غمــام
سدت به الآفاق حتى إننـــــا   فلنا بدا قبل الضحي الإظلام
فلقيت جيشهم بقلب ثابـــــت   حارت لقوة جأشه الأفهــام

....

وافاهــم بالشـؤم بعــد هلاكهــم   بالروم من بعد الفرات الشـام
غادرتهم فى أرض حمص وجاءهم   لوحوش أرضك والطيورطعام
طلبوا النجــاة ولا نجاة لهــارب   من خوف بأسك لم يجره ذمام
فقضوا عطاشا لا يبل لهم على الـ   إعياء والجـوع الشديـد أوام
لازلت منصور الـــلواء مظفــرا   ما لاح برق أو ألـــح غمـــام

وقال فيه أيضا ركن الدين بيبرس الفارقاني ، وكان أميا تركيا ، فهي وإن قصرت فى الصناعة الشعرية وخلت من الألفاظ الأدبية تستحسن من مثله وتستملح من نقله :

بدا الإسـلام في سعـد جديـد | هناه للموالـــي والعبيـــــد
وصار النصر للمنصور خدنا | وقارنه مع الرأي السـديـــد
هو المنصور خواض المنايـا | أبو الغـارات قتـال الأســـود
مضي للشام في جيش عظيـم | بأتراك وأعـرا ب حشـــود
ولاقي المغـل عند وطاة حمص | بمشهد خـالد نجل الوليـــــد
فحكم فيهـم البيض المواضـي | تقد قلوبهـم قبـل الجلـــود
فسائـل من هلاون عن قـلاون | وسل عنــه البرنس مع الكنـود
فـلا برحـــت يداه فى عــداه | مصرفـة بإسعاف السعـــود
ولا زالــت ملوك الأرض جمعـا | له ما عاش أمثـــال العبيـــد
وجـــازاه الإلـــه بكــل خـــير | وأسكنه غـدا دار الخلـــود

(التحفة الملوكية فى الدولة التركية)

(لبيبرس المنصوري ، الصفحات ١٠٠ و ١٠٢ و ١٠٣)

رسالة الملك المنصور قلاوون
إلى نائبه فى دمشق يبشره بالنصر على المغول
فى معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ

نصـر من الله وفتح قريـب وبشـر المؤمنين . صـدرت هذه المكاتبة إلـى المجلس . نعلمه أننـا ضـربنا مصـافا مع العدو المخذول على ظاهر حمص فـى يوم الخميس رابـع عشـر رجـب الفـرد سـنة ثمـانين وسـتمائة . وكـان العـدو المخـذول علـى ظـاهر حمـص فـى مائـة ألـف فـارس أو يزيـدون . والـتحم القتـال مـن ضـحوة النهـار إلـي غـروب

الشمس ، ففتح الله ونصر ، وساعدنا بمساعفة القدر ، ونصرنا ، والحمد لله ، على أذل الأعداء وكسرهم وظفر المسلمون ونصرهم . وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره وحلق طائره وامتلأت القلوب سرورا . وأولى الله الإسلام من تفضله علينا وعليهم خيرا كثيرا . والمجلس فليأخذ حظه من هذه البشرى العظيمة ، ويتقلد عقودها النظيمة . والله تعالى يخصه بنعمه العميمة إن شاء الله تعالى .

(ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٤ ٩٥ – ٩٦)

رسالة الملك الصالح بن المنصور قلاوون وولي عهده باسمه واسم والده إلى الملك المظفر صاحب اليمن جواب رسالة تهنئة أرسلها لهما بمناسبة انتصار قلاوون العظيم سنة ٦٨٢ هـ على المغول . وهي من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر

أعز الله نصرة المقام العالى المظفري الشمسى ، ولا زالت البشائر تورد على سمعه وتوفد على ربعه ، وتهدي إلى ابتهاجه وتحدى إلى منهاجه وتجهز إلى منابر ممالكه المحروسة ، وتنجز لمحابر مؤرخى السير النفيسة ، فلا برح يجدد منها صحفا مكرمة وينضد لها عقودا منظمة ، ويخلد منها كل ذكرى تنسى الملاحم المتقدمة ، ويشد بها أركان الهدي التي لولا دعايم الرماح المقومة لكانت مهدمة . محمد ما أخذ والده فى فن منها إلآ وأخذ المملوك فى دراسة ذلك الفن ، ويصف ولاء قد أمسى كل منهما بسمته

يكتنى وبذروته يكتن . ويستفتح بذكر نعمى أصبح لطف الملوك يخدم خدمة بسنة أبيه فيها يستن ، ويواليه بها على كل مؤمن فى أقاصى الأرض يمتن . وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتيا وكوكب سعده مضيا ويوم نصره بدريا ، وأصبح بها أهل التهايم والنجود في هناء ، وملايكة السماء فى شكر لسلطان الإسلام ودعاء . وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ودموع السحايب أن تتشرع وأكباد البيد أن تنقطع ، وذلك أن التتار المخذولين جمعوا كل من اعتقدوا فى ظنهم أنه يزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لا يألف غير ظهور الجياد من يوم مولده ، واحتفلوا احتفالا استصحبوا فيه ما ادخروا وما صانوا . وسمحوا بأعزة أكابرهم ومقدمى التمانات (يعنى فرق العشرة آلاف جندي لكل فرقة) الذي ما سمع قط أنهم فى معركة هابوا ولا هانوا . وبلغت مولانا السلطان أخبارهم ولمعت لإقتباسه نارهم ، وغيروا عاداتهم فى المهاجمة ، وأتوا على تؤدة نووا بها المصادقة والمصادمة ، فملأوا الأقطار رعبا والبلاد سلبا ، وأتوا المنازل كما تأتى الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل، وامتدوا معتقدين أنهم مستحقون للممالك والأمصار ، مستخفون بالملوك والأنصار ، واثقون بأنهم لا ينجو منهم سكان البراري ولا القفار ، ولا المحتجبون بأسوار البحار . ومولانا السلطان وجنوده فى غيلهم رابضون ، وعلى سيوفهم قابضون ، يستجرونهم ليقع شركهم من توسط البلاد الإسلامية فى شرك ، ويستدرجونهم ليقعوا من أسفل دار الموت فى درك . فلما قربوا من حماة المحروسة، وبينوا بنيانها من قراها ،

واستدنتهم حمص لقراها، رتب لهم مولانا السلطان وثبة شيّبت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداما كان مساوقه فيه مصنفة خالد بن الوليد ، وأردفته الملايكة بنجدها وكاثرته الملوك بعددها وعددها . وكان المسلمون في ساير البلاد فى تلك الساعة قد طرقوا أبواب السماء وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد فى تلك الساعة فى القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتهجدين فى ذلك الوقت قايمة متزاحمة بالمناكب ، كما صفوف المجاهدين ثابته متساقبة فى تلك المواكب . فنظر الله تعالى إلى خلقه ببركته تلك الجباه الركع ، وبمن قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع ، فأرسل الله ملايكة النصر ترمي وجرد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمي.
وثبت مولانا السلطان ثبوتا ما سمع أن سلطانا ثبته وأطلع الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبول حسن وأنبته .
وكان العدو فى مائة ألف مقابل مقاتل مناصل مناضل مصارم مصادم مكالب مكالم ، فصبروا على حسر العلاقم ، ورأوا أن الموت خير لهم من الهزايم ، فلم يفلت منهم إلا من استعمل السيف ساعة من نهار. وفر بعضهم والموت يقول لهم : قل لن ينفعكم الفرار . وكان ذلك فى يوم الخميس الرابع عشر رجب. ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور الخيول فى كل معبر ومضيق ، ومن هوت به الريح فى مكان سحيق . وغزا فيهم كل شئ حتى الغربان والنسور والعقبان ، وتبعتهم العساكر إلى شط الفرات وإلى رايات الرحبة وإلى دير بندات سيس ، وخرج عليهم أهل البيرة بعساكر مستريحة ، وأهل الحصون كلها بجنود مستبيحة فوضعوا كل السيف على كل من كل ، وعقدوا

حلق الإسار على من حل ، وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وأبت الأرض أن تواري جسدا لهم فقذفتهم فى المهامة والقفار. وانجلت هذه الملحمة عن لطف شامل ونصر كامل وظفر ينشد أكابر المغل فى بلاد ما وراء النهر .

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص فى قابل ، وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه سكاري وما هم بسكاري ، وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن رأسا. وجعل على اسم الله فى قفول جهوده ما أجري منهم وما أرسي مما رد بأسا وكفي يأسا . ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت بالتهانى الوجوه ، وضربت البشاير فى كل صوب ، وحلقت الملايكة حتى الأفق خلق بالبرود، والسماء ضربت فيها البشاير بالرعود . ولما تهيأ هذا النبأ العظيم الذي أهل الممالك عنه غافلون ، لم يغفل مولانا السلطان عن إبهاج المولى بهذه التهاني التي لمثلها فليعمل العاملون ، وسير بها بريدا إلينا وعلى يده مبشرة كريمة الى المولي . فأصدرناها على حالها ، وأصحبناها هذه الخدمة يتناوبان فى شرح هذه الملاحم التى ولد بها الإسلام جديدا ، ولتقرب للسمع الشريف من هذه الوقايع بعيدا . وقد علم الله والمسلمون أن العيان فى هذه الوقعة ليس كالخبر . ولعمر الله إن هذه النصرة ذكري للبشر لأنها كفت الملة الإسلامية عظيما ، وأخذ الله بها للأيمة والأمة ثأرا قديما . ومولانا أحق بأن يسر بها سراير كل منبر ويتقدم بتحبيرها فإنا أشرف ما يحبر وأجل ما به يخبر . لا برح المولى

يفرح للمؤمنين بنصر الله ويشكر مواقف سلطان ليس عن نصر دين الله بغافل ولا لاهٍ . والله الموفق.

(تاريخ ابن الفرات ج ٧ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥)

ـ ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ الإستيلاء على قلعة المرقب

نبذة تاريخية عن القلعة

سميت قلعة المرقب من "المراقبة" ، وتحورت هذه الكلمة فى ألسنة الفرنج الصليبيين إلى "مارجات Margat" ، إذ كانت من القلاع الصليبية ، بل كانت إحدى القلاع المنيعة لنظام فرسان المستشفى الدينى العسكرى .

وتقع القلعة فوق تل مرتفع يعلو سطح البحر بخمسمئة متر ، وهو تل يشرف على البحر المتوسط تشكل من بركان خامد على الطريق بين طرابلس واللاذقية ،. وربما كان تاريخ القلعة قديما غير أن أحدث دفاعاتها المبنية ترجع الى عام ١٠٦٢م ، على أيدي العرب الذين استمروا فى السيطرة عليها فى داخل إمارة أنطاكية فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، وفى عام ١١٠٤م ـ ولم تكن أنطاكية قد وقعت فى أيدي الصليبيين بعد ـ انتصرت الإمبراطورية البيزنطية على الإمارة فى معركة حران ، وانتهزت الفرصة واستولت على القلعة من المسلمين . وبعد سنوات قليلة استولى عليها تانكريد الصليبي أمير الجليل والقائم بالوصاية على إمارة أنطاكية ، وضمها الى الإمارة.

وفى عام ١١٧٠م سيطر على القلعة رينالد الثانى مازوار Reynald II Mazoir of Antioch حاكم أنطاكية التابع لكونتية طرابلس الصليبية، وكانت القلعة من الضخامة بحيث ضمت عائلة مازوار الكبيرة لتتولى مسؤوليتها وعدد كبير من الأتباع المساعدين أو الثانويين . وفى عام ١١٨٦م باعها ابنه برتراند Bertrand لنظام فرسان المستشفى العسكري ، إذ كان الإنفاق على القلعة فوق احتمال عائلة

مازوار. وأجرى نظام فرسان المستشفى بعض الترميمات وأعاد بناء وتوسيع أجزاء منها ، وأصبحت المقر الرئيسى لنظام فرسان المستشفى الديني العسكري فى سوريا . وتحت سيطرة هذا النظام ، كان يعتقد أن أبراجها الأربعة عشر منيعة ؛ وفعلا لم يقدر صلاح الدين الأيوبى على فتحها فى عام ١١٨٨م ، وكانت واحدة من الأصقاع القليلة المتبقية فى أيدى المسيحيين بعد انتصار صلاح الدين .

وكان نظام فرسان المستشفى فى بدايات القرن الثالث عشر يسيطر على الأراضى والطرق المحيطة بالقلعة ، وحقق أرباحا ضخمة من المسافرين والحجاج . وفى الحملة الصليبية الثالثة ، عندما استولى ريتشارد الأول الإنجليزى على قبرص ، أسر اسحق كومنينوس القبرصى وسجنه فى القلعة . كما أن أسقف فالينيا Valenia جعل من قلعة المرقب مقرا رئيسيا له فى حوالى عام ١٢٤٠م . وكانت القلعة ثانى أضخم القلاع من حيث الحجم والقوة بعد قلعة الفرسان Krak des Chevaliers ، أو قلعة الأكراد.

الحصـــار

في شهر ربيع الأول ٦٨٤ هـ / ابريل ١٢٨٥ م أرسل النائب على حصن الأكراد ، وهو سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري ، إلى السلطان قلاوون يخبره بأن حصن المرقب قد خلا من الرجال والفرسان ، ويستأذن فى مهاجمته بمن عنده من عسكر حصن الأكراد . وكان السلطان قلاوون يتهيأ لمهاجمة الفرنج الذين لا تشملهم الهدنة المعقودة سنة ١٢٨٣م ، وخاصة هذه القلعة العظيمة وانتزاعها من نظام فرسان المستشفى الذين كانوا دائما حلفاء للمغول فأذن له السلطان . وارتاع الصليبيون فى كافة الأنحاء ، فسارعت صاحبتا بيروت وصور، إيشيفا ومرجريت ، بطلب الهدنة مع السلطان ، فأجابهما إلى طلبهما .

ولما توجه نائب الكرك سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري اليها خرج الأرمن والفرنج واهل السواحل وتصدوا لسيف الدين وهزموا قواته ونهبوها ؛ ولما علم السلطان بذلك غضب غضبا شديدا وأمر بتجهيز الجيش لغزو المرقب ومعاقبة الأرمن ، وأرسل إلى سنقر الأشقر لموافاته بالعساكر ، لكن الأشقر أرسل ولده ،

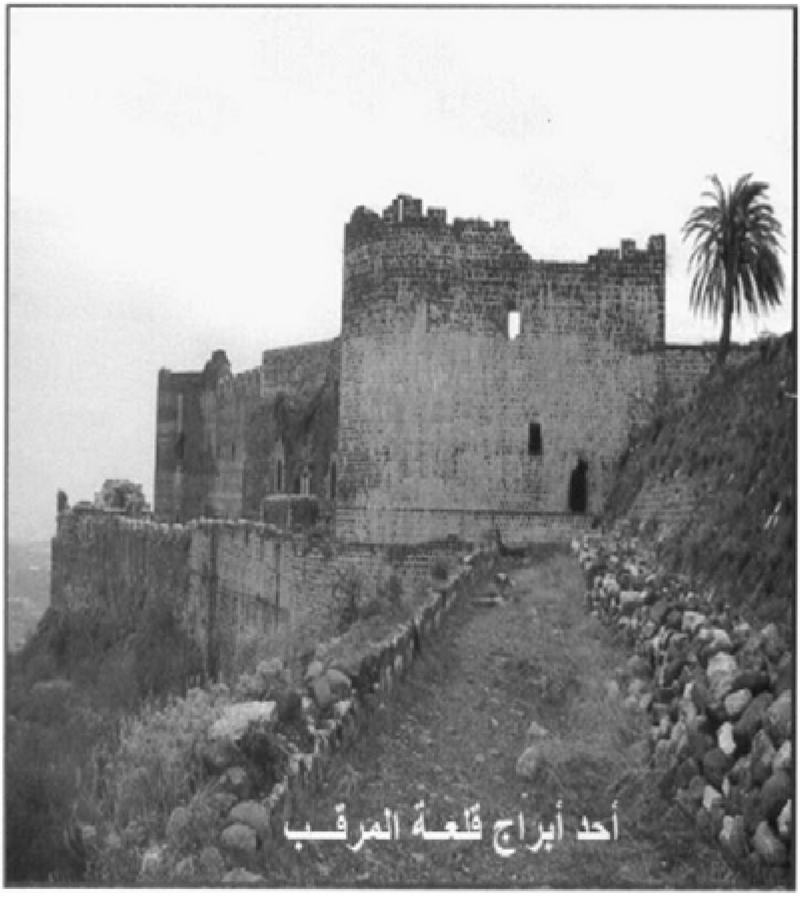
وتأخر عن الحضور، فتيقن السلطان من خداعه وإصراره على التمرد ، فأرسل ولده الي مصر حنقا على أبيه وغيظا من تأخره .

الإستيلاء على القلعــة

ظهر السلطان مع جيشه العظيم فى سفح الجبل الذي تعلوه القلعة ، وقد جلب معه عددا كبيرا من المناجق أكثر من أي عدد آخر شوهد مجتمعا من قبل ، وقام رجاله بجرها إلى أعلي التل وبدأو قصف الأسوار . بيد أن القلعة كانت مجهزة تجهيزا جيدا وصمدت أمام السلطان طوال شهر.

وفى نهاية الشهر نجح رجال السلطان فى حفر نفق تحت برج الأمل الذي كان يرتفع فى نهاية الزاوية الشمالية البارزة ، وملأوا النفق بالأخشاب القابلة للإحتراق ؛ وفى شهر مايو تفجّر النفق وسقط البرج حطاما بحيث عرقل تقدم رجال السلطان . بيد أن الحامية اكتشفت توغل النفق بعيدا تحت دفاعاتها ، فتيقنت من الهزيمة واستسلمت للسطان الذي أولى الإحترام لحجم القلعة والتقدير لشجاعة المدافعين عنها ، فسمح لفرسان المستشفى البالغ عددهم خمسة وعشرين قائدا بالإنسحاب على صهوات الجياد وبكامل أسلحتهم وكل شئ يستطيعون حمله ، وسمح لباقي أفراد الحامية بحرية الرحيل دون أن يحملوا معهم شيئا ، فانسحبوا إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس ، ودخل قلاوون القلعة دخول الفاتحين ، وبدلا من تدميرها كما دمر غيرها أبقى عليها ووضع فيها حامية مملوكية .

♣♣♣♣♣


أحد أبراج قلعة المرقب

- ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ احتفالات الفرنج فى صيدا وعكا

فى ١٥ أغسطس ١٢٨٦م قام رئيس أساقفة بوناكورسو (أوف جلوريا) ، وبالنيابة عن البطرق ، بتتويج الملك هنري فى صيدا . وبعد الإحتفال عاد البلاط إلى عكا حيث انقضي أسبوعان فى حفول تخللتها الألعاب ومسابقات الفروسية ، وأقيمت فى قاعة نظام فرسان المعبد الكبيرة عروض مسرحية شملت مشاهد من قصة المائدة المستديرة ظهر فيها لانسلوت وتريستران وبالاميد ، وقدموا قصة ملكة فيميني المأخوذة من قصة طروادة (والمائدة المستديرة *Round Table* مائدة كبيرة مستديرة كان يجلس عليها الملك آرثر مع فرسانه ، وقد اختارها مستديرة تجنبا تجنبا للخلاف حول الصدارة أو الأسبقية) . ولم يشهد الشرق الفرنجي طوال قرن مضى مثل ذلك الحفل البهيج الرائع ؛ وكان لجاذبية الملك الصبي الوسيم أثرها على الجميع ، إذ لم يكن معروفا بعد أنه مصاب بالصرع ؛ فكان من ورائه عمّاه فيليب وبلدوين الإبيليين ينصحانه بكل شئ ، وكانا يحظيان باحترام عميق . وبناء على نصيحتهما لم يمكث طويلا فى عكا ، وإنما عاد إلى قبرص بعد أسابيع قليلة تاركا بلدوين الإبليني وكيلا للمملكة ، وكان عماه يدركان جيدا أن إقامة الملك فى المملكة أمر لن يستسيغه العامة من الناس .

- ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ تيكودار المغولى يعتنق الإسلام ويسمى أحمد ، ويعقد معاهدة مع قلاوون

ولا بد أن السلطان فى القاهرة قد ابتسم لدي سماعه بمرح الفرنج الأرعن ذاك ؛ أما الخان المغولى فى تبريز فقد بدا له ان الوقت قد حان للقيام بعمل أكثر جدية . وكان أباغا قد مات فى أول إبريل ١٢٨٢م ، وخلفه أخوه تيكودار الذي عمّدوه فى طفولته ليدخل عقيدة النساطرة باسم نيكولاس ، غير أن ميوله كانت مع المسلمين . وما أن اعتلى العرش أو كاد حتى أعلن تحوله إلى الإسلام متخذا إسم أحمد ولقب بالسلطان ، وفى نفس الوقت أرسل إلى

القاهرة لإبرام معاهدة صداقة مع قلاوون . وارتاع المغول المسنون فى بلاطه من سياسته ، فما كان منهم إلا أن شكوه فى الحال لدي الخان الأعظم قوبلاي . وبموافقته ، قام ابن أباغا ــ أرغون ــ بقيادة تمرد فى خراسان التي كان حاكمها . وهُـزِمَ بادئ الأمر ، غير أن قواد أحمد تخلوا عنه ، وانتهي أمر السلطان أحمد بأن اغتيل فى مكيدة دبرت فى القصر يوم ١٠ أغسطس ١٢٨٤م . وعلى الفور اعتلى أرغون العرض . وكشأن أبيه ، كان أرغون انتقائيا من الناحية الدينية ، وكانت ميوله تتجه نحو البوذيــة ، غير أن وزيره سعد الدولة كان يهوديا ، وأعز أصدقائه كان كاثوليكوس بطرق الأرمن النسطوري ، (ماريا بهالاه) . وكان هذا الرجل المرموق من أصل تركي ، من الأونغوت ، ولد فى مقاطعة شانسي الصينية على ضفاف نهر هوانج هو. وقد جاء إلى الغرب مع ابن جلدته ــ ربّان ساوما ــ على أمل غاش فى أن يحج الى القدس . وبينما كان فى العراق سنة ١٢٨١م خلا منصب البطريق الأرمني وتم انتخابه ليشغله . وكان له نفوذ قوي على الخان الجديد الذي كان تواقا لإنقاذ أماكن العالم المسيحي المقدسة من أيدي المسلمين ؛ بيد أنه امتنع عن ذلك ما لم يساعده ملوك الغرب المسيحيون .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(تأليف السير ستيفن رانسيمان جـ ٣ ص ٤٥٩ ـ ٤٦١)

ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ الإستيلاء على الكرك

سبق تفصيل استيلاء السلطان قلاوون على حصن الكرك من ولدي الظاهر بيبرس (المسعود نجم الدين خضر وأخيه سلامش) فى الفصل الأول ، فى الصفحة رقم ٣٦ .

ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م الإستيلاء على صهيون

لم ينس السلطان قلاوون تخلف سنقر الأشقر عن تلبية أوامره بالسير والمساعدة فى الحملة على قلعة المرقب ، كما علم أنه يشن الغارات على ما حوله من البلدان ، ولم يعد يحترم الإتفاق مع السلطان ، وإنما أصر على الشقاق والعناد . فكلتف السلطان الأمير حسام الدين طرنطاي نائبه بالسير على رأس الجيش الى صهيون ومنازلتها. فسار الأمير إليها وأظهر لسنقر الأشقرصادق العزم على محاربته . وبعث الى سنقر يذكره بما بينه وبين السلطان من المودة ، وما انتهي إليه الحال بينهما من مواثيق واتفاقات . ثم إن الأمير طالبه بالتسليم والإستسلام ن وفى تلك الحالة وعده بوفاء السلطان له والإغداق عليه من كل ما هو طيب ، ونزوله من السلطان فى أعلى المنازل. أما إذا لم يستجب إلى تلك اليد الممدودة بالود والترحاب ، فلا ينتظر إلا الحصار والمناجق حتى تنفذ وسائله ولا ينتظر عفوا ولا مودة ولا رجوع ، وقد أعذر من أنذر.

ولم يستجب سنقر الأشقر لتلك اليد الممدودة ، فراح الأمير حسام الدين يقصف الحصن بالمناجق فتنهار الجدر الواحد تلو الآخر ، وأيقن سنقر الأشقر من عجزه عن المقاومة وأن الأمر سينتهى لا محالة الى فتح الحصن ، فأرسل يطلب الأمان ويعرض الإستسلام ، فأجابه الأمير حسام الدين الى طلبه ، وضمن له العفو من السلطان بما طلبه الأشقر من الأيمان . فنزل وسلـّم صهيون . وارتحل مع الأمير الى الديار المصرية .

"... ولما وصلا ركب السلطان لتلقيهما بموكب جميع العساكر والأمراء والأكابر والخشتاشية والبحرية الصالحية . ولما اقترب بعضهما من بعض ترجل السلطان عن فرسه وعانقه وكارشه (يعني احتضنه) وأطلعه القلعة وأسكنه فيها وحمل إليه من الخلع وتعابي القماش (يعني قطع القماش)وحوايص الذهب ما ملأ قلبه فرحا ويده منحا ، وقاد إليه الخيل المسوّمة بالعدد المعلمة واتخذه جليسا فى الحضر وأنيسا فى السفر وسميرا فى المقام ومشيرا فى المهام ، ولم يزل معه على هذا الحال مدة حياة السلطان ولم يذكر له شيئا من ذنوبه ولا حقد عليه سالف تقلبه ووثوبه بل عفا عما مضى وأراه وجه الرضي . وكان هذا دأبه معه الى أن قضى . فلما قدر الله تعالى بانتقال السلطان إلى جوار ربه وأفضى الأمر إلى الملك الأشرف ، غير الله عليه ضمير قلبه ، فاعتقله وكان آخر العهد به . "

(التحفة الملوكية في الدولة التركية)

(لبيبرس المنصوري الصفحتان ١١٧ـ ١١٨)

ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م الإستيلاء على اللاذقية

دأب تجار حلب على الشكوي يرفعونها الى السلطان مرة بعد مرة يقولون فيها إنهم يضطرون الى إرسال بضائعهم إلى ميناء اللاذقية المسيحي ، وكان هذا الميناء آخر بقايا إمارة أنطاكية . وفى يوم ٢٢ مارس من عام ١٢٨٧م حدث زلزال شديد فى اللاذقية دمّر أسوار المدينة تدميرا بالغا ، وسنحت الفرصة للسلطان قلاوون ، فأرسل الى طرابلس قائلا إن اللاذقية جزء من الإمارة القديمة ، إمارة أنطاكية ، وبذا لا تشملها الهدنة المعقودة مع طرابلس . وأرسل قائده الأمير حسام الدين طرنطاي

للإستيلاء على المدينة ، فسقطت المدينة بسهولة . غير أن المدافعين عنها لاذوا بالقلعة الواقعة فى فتحة المرفأ . وكان يصلها بالأرض الرئيسية للمدينة طريق مرتفع . وقام حسام الدين بتوسيع هذا الطريق وسرعان ما أقنع الحامية بالإستسلام فاستسلمت فى ٢٠ إبريل ، أي بعد نحو شهر من الزلزال ، ولم يخف أحد من الصليبيين لنجدتها .

ـ ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م مع الصليبيين فى عكا وطرابلس

١ـ وارثة طرابلس :

كانت إمارة أنطاكية تشتمل على أنطاكية ونواحيها (وقد استولى عليها الظاهر بيبرس) واللاذقية (وقد استولى عليها المنصور قلاوون) وبقيت كونتية طرابلس . وظلت الإمارة تنتقل من وريث إلى آخر منذ إنشائها فى بدايات الحملات الصليبية فى القرن الحادي عشر . والآن كان سيدها بوهمند السابع الذي شهد ضياع اللاذقية، ومات يوم ١٩ أكتوبر عام ١٢٨٧م ، أي بعد حوالى خمسة أشهر فقط من سقوط اللاذقية ، وقد مات أبتر بلا ذرية .

وكانت ورثته أخته لوتشيا التي كانت تعيش آنذاك فى أبوليا ، بيد أن نبلاء طرابلس لم يرغبوا فى استدعائها إلى الشرق ، إذ أنها أميرة لا يكاد يعرفها أحد ، فضلا عن ارتباطها بأدميرال كانت أسرته سيئة السمعة .

لذا عرضوا الكونتية على السيدة المسنة الأميرة سبيلا الأرمينية ، وما أن تلقت هذا العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم الأسقف بارثولوميو أسقف طرطوس تدعوه ليكون وكيلها عن المملكة . لكن رسالتها وقعت فى أيدي نبلاء الكونتية ، فذهبوا إليها وأخبروها بأنهم لا يوافقون على قبول الأسقف ، وأصرت الأميرة على موقفها رافضة التحول عن مرادها .

وبعد مشهد عاصف ، انسحب النبلاء وأجروا مشاوراتهم مع كبار التجار ، وأعلنوا جميعا خلع الأسرة الحاكمة عن العرض وتشكيل كوميون يصبح هو السلطة السيادية فور تشكيله ومستقبلا .

وكان رئيس الكوميون هو بارثولوميو إمبرياكو ، وكان والده برتراند عدوا لدودا لبوهموند السادس . أما بوهمند السابع فقد سبق أن أعدم أخا بارثولوميو مع ابن عمه لورد جبيل على نحو بشع .

٢ـ الأميرة لوتشيا وريثة أخيها بوهمند :

في وقت مبكر من عام ١٢٨٨م وصلت لوتشيا مع زوجها إلى عكا لكي تذهب الى طرابلس حيث تتسلمها ميراثا لها . واستقبلها فرسان نظام المستشفى الديني العسكري استقبالا حسنا ، إذ أنهم كانوا حلفاء لأسرتها الحاكمة فيما مضي ، وصحبوها حتى مدينة نيفين الحدودية للكونتية حيث أصدرت بيانا بإعلان حقوقها . بينما توجه توجه السادة العظام الثلاثة للأنظمة الدينية العسكرية للمستشفى والمعبد وفرسان التيوتون ومعهم وكيل ميناء البندقة الموجود فى عكا ، ذهبوا جميعا الى طرابلس للدفاع عن قضية الأميرة لوتشيا الوريثة . أما فرسان نظام المستشفى فكان دافعهم فى الإنحياز الى الأميرة لوتشيا ما كان من صداقة قديمة مع عائلتها ؛ وأما فرسان المعبد وفرسان التيوتون فكانوا يساندون البندقية ضد جنوا . غير أن الكوميون أخبرهم بضرورة اعتراف الأميرة لوتشيا بالكوميون كحاكم للكونتية .

♣♣♣♣♣

٣ـ معارضة الكوميون :

لم يقبل الكوميون ما أعلنته الأميرة لوتشيا ، وأصدر قائمة طويلة تشتمل على المآسي والشكاوي من أعمال القسوة والإستبداد التي ارتكبها أخوها بوهمند السابع ، وأبوها بوهمند السادس ، وجدها بوهمند الخامس ، وأعلنوا عدم رغبتهم فى هذه الأسرة الحاكمة ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورية جنوا . وعلى الفور أرسلوا رسولا إلى جنوا كي يخبر الدوج الجنوي بما تم ، فما كان من هذا الأخير إلا أن استجاب للكوميون وأرسل على وجه السرعة خمس سفن برئاسة الأدميرال بنيتو زخاريا لحماية الكوميون والإتفاق معه .

٤ـ انتشار الخلافات بين الصليبيين :

"عندما وصل الأدميرال زخاريا مع سفنه الخمس من جنوا، أصر على عقد معاهدة تعطي أبناء جنوا مزيدا من الشوارع فى طرابلس ، وكذلك الحق فى وجود قاض لقضاة المدينة ليحكم مستعمرتهم ، بينما ضمن حرية الكوميون وامتيازاته .

على أن أبناء طرابلس بدأوا يرتابون فى نزاهة صديقتهم جنوا ؛ خاصة وأن رئيس الكوميون بارثلوميو إمبرياكو ضمن السيطرة على جبيل بتزويج ابنته آجنس من ابن عمه بطرس ابن جوي الثاني ، ثم إنه اشتهي الكونتية لنفسه ، وأرسل رسالة الى القاهرة ليعرف ما إذا كان السلطان قلاوون سوف يسانده إذا ما نادي بنفسه كونت طرابلس .

وبدأت الشكوك تحوم حول طموحاته ؛ وتحول الرأي العام فى طرابلس لمناصرة قضية لوتشيا . وكتب

الكوميون رسالة لها ـ دون إخطار أبناء جنوا ـ يعرض قبولها بشرط تأكيدها لوضع الكوميون وامتيازاته . وفي حركة لا تخلو من فطنة أخبرت لوتشيا الأدميرال زخاريا الذي كان فى أياس يرتب لعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينيا، فسارع إلى عكا لمقابلتها . ووافقت على تأكيد امتيازات كل من الكميون وجنوا . وبهذه الشروط تم الإعتراف بها كونتيسة طرابلس .

ولم تلق تلك الترتيبات استحسانا من البنادقة ولا من بارثولوميو إمبرياكو الذي كان على اتصال فعلى بقلاوون . ووصل الى القاهرة اثنان من الفرنج يلتمسان تدخل السلطان . وليس فى الإمكان الآن معرفة ما إذا كان بارثولوميو هو الذي أرسلهما أم بنادقة عكا ؛ وكان كاتم أسرار السيد الأعظم لفرسان المعبد يعرف أسماء المبعوثين لكنه فضّل عدم الكشف عنهما . وقد حذرا السلطان من أنه إذا سيطرت جنوا على طرابلس فسوف تهيمن على الشرق كله ولسوف تغدو تجارة الإسكندرية تحت رحمتها."

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)
للسير ستيفن رانسيمان ، الصفحتان ٤٦٧ و ٤٦٨)

♣♣♣♣♣

ـ ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م الإستيلاء على طرابلس

"أبهج السلطان أن توجّه إليه الدعوة للتدخل ، إذ كانت تلك الدعوة ذريعة لخرق الهدنة مع طرابلس . وفى فبراير ١٢٨٩م نقل الجيش المصري كله إلى سوريا دون أن يكشف عن الهدف . غير أن أحد أمرائه ، بدر الدين بكتاش الفخري ، كان مأجورا لفرسان المعبد ، فأرسل كلمة إلى السيد الأعظم ، وليم أوف بوجو ، أن هدف قلاوون هو طرابلس . وسارع وليم يحذر المدينة ويناشدها الإتحاد وترتيب دفاعاتها . ولم يصدقه أحد ، إذ كان المشهور عن وليم أنه مغرم بالمكائد السياسية ، وقيل إنه اختلق تلك القصة لمصلحته الخاصة آملا أن توجّه اليه الدعوة للوساطة ولم يتغير شئ وواصلت الأطراف نزاعاتها حتى أواخر مارس تقريبا عندما زحف الجيش الضخم للسلطان مخترقا البقاع وتجمع أمام أسوارالمدينة .

وأخيرا أخذ التهديد مأخذا جادا . ففى داخل المدينة منح الكوميون والنبلاء على السواء الكونتيسة لوتشيا السلطة العليا . وأسل فرسان المعبد قوة شمالا بقيادة مارشالهم جيوفري ، وأرسل فرسان المستشفى قوة بقيادة مارشالهم ماثيو . وسارت الكتيبة الفرنسية شمالا من عكا بقيادة جون أوف جريللي . وكان فى الميناء أربعة غلايين جنوية وغليونان بندقيان (جمع غليون وهو نوع من السفن ساد فى تلك العصور) فضلا عن قوارب أصغر بعضها لأبناء بيزا . ومن قبرص أرسل الملك هنري أخاه الأصغر أماليك الذي كان قد عيّنه لتوه كونستابلا للقدس ، ومعه صحبة من الفرسان وأربعة غلايين . وفى ذات الوقت

هرب الكثير من المواطنين غير المقاتلين عابرين البحر إلى قبرص .

كانت طرابلس العصور الوسطي تقع على البحر ، علي شبه الجزيرة الجدباء التي تقف عليها الآن ضاحية "المينا" العصرية ، وقد فصلت عن قلعة جبل الحاج التي لم تبذل محاولة للدفاع عنها على ما يبدو . أما المدينة نفسها فقد كانت دفاعاتها رائعة . وبرغم سيطرة المسيحيين على البحر ، إلا أن التفوق العددي الشاسع للمسلمين وضخامة آلات حصارهم أثبتت عدم إمكان المقاومة . وعندما دمّرالقصف برج الأسقف الواقع فى الركن الجنوبي الشرقي من الأسوار الأرضية ، وبرج المستشفي الواقع بينه وبين البحر ، قرر البنادقة استحالة الدفاع أكثر من ذلك ، وحمّلوا سفنهم على عجل بكل ممتلكاتهم وأبحروا خارجين من المرفأ . وتسبب فرارهم فى شعور أبناء جنوا بالخطر ، وقد ارتاب قائدهم زخاريا فى أن البنادقة يحاولون سرقة بعض قواربه ؛ فجمع هو الآخر رجاله وتركوا المدينة بعدما أخذوا معهم كل ما أمكنهم أخذه . وتسبب رحيلهم فى بث الفوضي بين المسيحيين ؛ وفى صباح ٢٦ إبريل ١٢٨٩م ، أمرالسلطان بهجوم عام ؛ فتقدم المماليك بحشود كثيفة على سورالمدينة الجنوبي الشرقي المنهار .

وفى المرفأ كافح المواطنون الذين أصابهم الذعر للوصول إلى القوارب ؛ وتمكنت الكونتيسة لوتشيا من الإبحاربأمان إلى قبرص ومعهاى أماليك القبرصي ومارشالا النظامين الدينيين العسكريين ، لكن قائد فرسان المعبد لقى حتفه فى القتال وكذلك بارثولوميو أمبرياكو .

وكان المسلمون يقتلون على الفور أي رجل يجدونه فى طريقهم ÷ أما النساء والأطفال فكانوا يؤخذون رقيقا . وتمكن بعض اللاجئين من العبور فى قوارب تجديف الى جزيرة سانت توماس الصغيرة الواقعة أمام اللسان الأرضي مباشرة ، لكن خيالة المماليك تقدموا فى المياه الضحلة وسبحوا إليها ، حيث تلت مذابح مماثلة ، وعندما حاول المؤرخ أبو الفدا الحموي زيارة الجزيرة بعد أيام قلائل صدته الرائحة النتنة من الجثث المتحللة .

وعندما انتهت المذبحة والنهب ، دمر قلاوون المدينة وسواها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج استعادتها بما لهم من سيطرة على البحار . وأمر بتشييد مدينة جديدة فى سفح جبل الحاج تبعد عن الشاطئ أميال قليلة .

وذهب بعض المماليك للإستيلاء على البطرون ونيفين . ولم تكن هناك أية محاولة للدفاع عنهما . وعرض بطرس أمبرياكو ، لورد جبيل ، خضوعه للسلطان وسُمح له بالإحتفاظ بمدينته تحت الإشراف الصارم لعشر سنوات أخري تقريبا "

(المرجع السابق ، الصفحات ٤٦٨ ــ ٤٧٠)

♣♣♣♣♣

الفصل الســادس

وفــاة السلطان قلاوون

٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م

في عامه الأخير ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م

كان سقوط طرابلس نصرا مؤزرا ، توج به السلطان جهوده التي أثمرت باسترجاع الكثير من المدن والحصون من أيدي الصليبيين الغزاة إلى أصحابها الأصليين العرب المسلمين .

وامتدحه الشعراء :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب — وحزت بالمجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة — منك الجيوش على الأعداء بالرعب
أحرزت ما فات قدما من طرابلس — جمع الملوك ذوى الإرعاب والرهب
من كل قطرٍ أحاطوا محدقين لها — ورفع أبراجها خفض بمنتصب
أجريت فيها بحاراً من نجيعهم — فكل سابحة سبحاً إلى اللبب
أفقتهم بعد عز مرَّ ذلهم — وبعد أمنٍ كؤوس الخوف والوصب
جزاك ربك عنه كل صالحة — وزاد عزك تمكينا على الحقب
ودمت ترجى وتخشى ذا ندىً وسطا — مبلغا كل ما حاولت من طلب

ـ مذابح المسلمين في عكا

فى صيف ذلك العام ١٢٩٠ م راح تجار دمشق يرسلون قوافلهم إلى الساحل وهم فرحون بوفرة الحصاد ، واتساع نعم الله على العباد ، ودأب الفلاحون المسلمون على التجمع بمحاصيلهم فى أسواق عكا . وكان عاما فريدا بين الأعوام ، إذ لم تكن المدينة قد شهدت من قبل مثل ذلك النشاط والحيوية . وفى شهر أغسطس هبط إلى المدينة الصليبيون الإيطاليون ، فاستحالت الأحوال من هدوء واستقرار إلى هياج واستنفار، إذ كان الإيطاليون فوضويين ، سكاري ، فاسقين ، لا سبيل إلى قادتهم للسيطرة عليهم لعجزهم عن دفع رواتبهم .

وكـان الإيطـاليون الوافـدون قد جـاءوا لمحاربـة الكفـرة المسلمين ، وراحـوا يهـاجمون التجـار والفلاحين المسلمين المسـالمين . وانـدلعت فـى أحد أيـام اغسطس أعمال شغب فى حانة للشراب يتواجد فيها المسيحيون والمسلمون ، وقيل إن تـاجرا مسلما أغـوي سيدة مسيحية ، واستنجد زوجهـا بجيرانــه . وفجـأة انـدفع غوغـاء الصليبيين فى الشوارع والضواحي يقتلون كل مسلم يقابلونـه فى طريقهم ، يعرفونهم بلحاهم ، ولذا هلك أيضا مسيحيون كثيرون بسبب لحـاهم . وارتـاع بارونـات المدينـة وفرسـان الأنظمـة الدينيـة العسكرية ، وتمكنـوا بشق الأنفس من إنقاذ عدد قليل من المسلمين أخذوهم الى القلعة حيث الأمان .

وسـرعان مـا علـم السلطان بتلك المذابح ، فاستشـاط غضبــا وقـرر اقتلاع الفرنج الصليبيين من الشام كلها . وسارعت حكومة عكا بإرسال اعتذاراتها وأسفها ، لكن السلطان أرسل مبعوثيه الى عكا وأصر على تسليمه المذنبين لمعاقبتهم .

وعقد الكونستابل أمالريك مجلسـا نـهض فيـه السيد الأعظم لفرسـان المعبد ونصح بتسليم جميع المجرمين المسيحيين المسجونين آنذاك فى سجون عكا إلى ممثلي السلطان على أنهم مرتكبوا الجريمـة .غير أن الـرأي العـام لم يكن يسمح بإرسـال مسيحيين الى حتفهم على أيدي الكفرة . ولم يتلق سفراء السلطان أيـة ترضـية ، وبـدلا من ذلك كانت هناك محاولة فاترة لإثبات أن بعض تجـار المسلمين مذنبون بإشـعا ل الشغب ، وبذا يتعين أن يُـلقى بالملامة عليهم .

وعقد قلاوون العزم على مهاجمة عكـا . وراح يعبئ الجيش المصري ويجهز آلات الحصار ، وفى ذات الوقت صدرت الأوامر للجيش السوري بقيادة ركن الدين طوقسو واليه على دمشق بالمسير بالمسير إلـى سـاحل فلسطين بـالقرب من قيصـرية وإعداد آلات الحصـار .

وفـي ٤ نـوفمبر ١٢٩٠م انطلـق مـن القـاهرة علـى رأس جيشـه . لكنـه مـا أن شرع فى المسير حتـى أصابه المرض ، وبعد ستـــة أيام توفي فى مرجـــة التين على مجـرد خمسـة أميـال مـن القـاهرة . وبينمـــا هـو علـى فـراش المـوت أخذ من إبنـــه الأشرف خليل وعدا بمواصلـــة الحملة .

ويقول عنه أعظم مؤرخي القرن العشرين ، السير ستيفن رانسيمان :

" لقد كان سلطانا عظيما ، يضاهي بيبرس
فى غلظته وقسوته ، وإنما يتميّز عنه
بإحساس رفيع بالإخلاص والشرف . وعلى
غير شاكلة بيبرس ، ترك قلاوون إبناً
جديرا بأن يخلفه ، ألا وهو الأشرف خليل
الذي سوف يكون له شأنه "

وقضي قلاوون نحبه ، ولقي ربه ، وقال فيه بعض الشعراء أبياتا تشتمل بعضها على التعزية وبعضها على التهنئة ، منها :

إن أوجع الدهرالقلوب وأحزنا
فلقد تدارك بالمسرة والهنا

خطب عظيم جاءنا من بعده
فرح أزال صباحه ترح عنا

بمنية المنصورشاهدنا الردى
لكن شهدنا فى ابنه كل المنى

فلئن أساء الدهرفيه فإنه
بالأشرف الملك المؤيد أحسنا

ياراحلا أبكى العيون تركت من
ملأ القلوب مسرة والأعينا

أنت الذى خضت الفرات مبادرا
فسقيت جيش المغل كاسات الفنا

وبمرج حمص أنت جاعل جميعهم

فـــرقا وما خانــوا لواش مطعنــا

وفجعت عباد المسيح بمرقـــب

تخـذوه من ريب الزمـــان تحصنـا

وعلى طرابلس نزلـت فأصبَحتْ

خبرا يقول نزيلهـا كانـــت هنـــا

وغزوت دنقلـة بأيسـر جحفـــل

فأتـي بجيشهـــم ذليـــلا مذعنـــا

وعمرت مدرسـة ومارستـان فى

عام. فأعجـز ذاك قبلـك من بـــنى

وكشفت بالعلمـــاء والحكمـاء عن

نهج الوري كرب الضلالـة والضـنى

فأخو السقام بدا صحيحا سالمــا

وأخو الضـــلال غـدا فقيها د َ يـّنــا

وبرزت تطلب عكـة فى عسكـر

لو رام خوض البحـــر أصبح هينـــا

فأتاك من رب العبـــاد قضــاؤه

حتمـا ً فغيب وجهـك البادي السنـــا

ودت نفوس العالمـين بأسرهـا

تفديـك من حكـم القضـا لو أمكنـــا

يا سيــف دين اللـــه إن فلتــك عـن
بعض المــراد كؤوس حـين تـُجتـــنى
أبشــر فقـد خلقــت بعدك صـارمـا
ما انفــل عن نيل المــراد ولا انثـــنى
وانعـــم بمقعـدك الكريم مهنئـــا
فيـــه بمــا قدمــت من حســن الثـــنا

♣♣♣♣♣

معـــــاول الهَـــدْم

وتبقـى كلمـة أخيـرة ، نعـرب فيهـا عـن بـالغ الدهشـــة مـن بعـض الكتّـاب المعاصرين من أصحاب معاول الهـدم ، إذ تصـادف أن علمنـا بوجود كتـاب معاصـر عن المماليك لكاتـب شـهير، فاستبشرنـا ، وسـرعان مـا انتكس البشـر إلـى مـا يقـارب الوزْر ، ذلك أن معول الهدم آثر أن يتحذلق ، فاختار لكتابه عنوان (الصـعاليك) بـدلا من المماليك ، انقيادا وراء قافيـة اليـاء والكاف ، لا أكثر ولا أقل . ولـم يسـتطع مؤلـف الكتاب إنكار دورهم العظيم فى صد المغول والصليبيين ، ولكنه حشر فى ثنايا الكتاب كلمات جوفاء عن استغلال المماليك للشعب المصرى .. هكذا بلا أدلة ولا مراجـع ولا أسـانيد ولا حتـى منطـق . وإذن فهـو كتـاب لا تسـاوي قيمتـه قيمـة المـداد الـذي سـوّد صفحاته ؛ غلبـه سجع عقيم ، وخيال سقيم ، وعمل زنيم ، فظـن أن الشـهرة سـتهرع اليه وأنه قد أدى واجبه فى كشف رذائل هؤلاء الصعـاليك .

هل شعرت ، صديقى القارئ ، بعد أن قرأت هذه السيرة أن قلاوون صـعلوك ؟ أو بيبرس الذي دوت شهرته الآفاق والأزمان ، أو قطز الذي - دون غيره ــ مرّغ أنف المغول والتتار فى عين جالوت ، أو شجرة الدر التي أسرت الملك الفرنسى ، هل شعرت أن أحـدا من هؤلاء صعلوك ؟

إنك تتصـفح كتابه هذا فتفاجأ بمديحـه لبيبـرس وقطـز وغيـرهم ، وتبحـث عن الصعلكـة فلا تجدها بين دفتي الكتاب ، وإنما تلحظها على غلاف الكتاب !

كما لا ننسى فى هذه المناسبة التنويه إلى أن وزارة التربية والتعليم فى مصـر قررت تدريس كتاب عن شجـرة الدر ضـمن مـواد الدراسـة فـى المرحلـة الإعداديـة ، وعنوانـــه "طمـــوح جاريـــة " وبـرغم غيـاب الإسـاءة إلـى المماليك ، إلا أن عنـوان الكتاب تشوبه شائبة ، إذ ينطبع فى أذهان التلاميذ أن ملكـــة مصـر التـى قهرت ملك فرنسا بعزيمتها وأنقذت مصر، ما هي إلا جاريــة طموحـة لا أكثر ، برغم ما حققتـه من إنجـازات داخليـة أفـادت المصـريين ، وخارجيـة يفخـر بهـا المصـريون علـى مـر التاريخ .

ولا يخفى على القارئ النجيب أن الأوطان العربية والإسلامية مستهدفة من الأعادى شرقا وغربا منذ أن أنارت شمس الحضارة الإسلامية أركان العالم المعروف آنذاك ، وعلى ذلك يتوجب على أبناء هذه الأوطان ،العربية والإسلامية ، أن يدينوا بالعرفان والتقدير لكل من جاهد الأعادى على مر التاريخ . ولا نعرف من زعماء العالم الإسلامي من شمر عن ساعد الجد والتضحية فى مجاهدة أعداء الإسلام والعروبة من فاق المماليك فى سعيهم ذاك المشكور، اللهم إلا قلة قليلة غاب ذكرها بين ثنايا التاريخ .

ولا نعرف بلدا آخر يختلط فيه الغث بالسمين عدا مصر ، ويحضرنى الآن شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، وقد أخذ منه الغضب ونالت منه الحفيظة وهو يخاطب مصر فى أوائل القرن العشرين في قضية الشيخ على يوسف التي شغلت الرأي العام آنذاك (نشرت القصيدة فى سبتمبر ١٩٠٤م) ، يقول ضمن ما يقول فى واحدة من قصائده العظيمة فى ديوانه :

حَطمْتُ اليراع فلا تعجَبى ... وعِفْتُ البيان فلا تعتُبى
فما أنتِ يا مصرُ دار الأديب ... ولا أنتِ بالبلد الطيّبِ
أمور تَمُرّ وعيش يُمرّ ... ونحن من اللّهوِ فى ملعَبِ
وصُحُف تطن طنين الذبابِ ... وأخري تشُنّ على الأقربِ
تضيع الحقيقة ما بيْنَنَا ... ويصْلى البرئُ مع المذنبِ
ويُهْضَمُ فينا الإمَامُ الحكيمُ ... ويُكْرمُ فينا الجَهولُ الغبى

♣♣♣♣♣

ملحق رقم (١) : سلاطين المماليك البحرية

سلاطين المماليك البحرية	فترة السلطنة
٠١- شجرة الدر (سلطانة)	١٢٥٠م
٠٢- أيبك (المعز عزالدين)	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- على بن أيبك (المنصور نورالدين)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- قطز (المظفر سيف الدين)	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهرركن الدين)	١٢٦٠- ١٢٧٧م
٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس)	١٢٧٧- ١٢٧٩م
٠٧- سلامش (العادل بدرالدين بن الظاهربيبرس)	١٢٧٩م
٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين)	١٢٧٩- ١٢٩٠م
٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون)	١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠- الناصر محمد (بن قلاوون)	١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١- العادل كتبغا (العادل زين الدين)	١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين)	١٢٩٦- ١٢٩٩م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية)	١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٣- بيبرس الثانى الجاشكير(المظفرركن الدين)	١٣٠٩- ١٣١٠م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثالثة)	١٣١٠- ١٣٤١م
١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصورسيف الدين)	١٣٤١م
١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين)	١٣٤١- ١٣٤٢م
١٦- أحمد بن الناصر محمد (الناصر شهاب الدين)	١٣٤٢م
١٧- إسماعيل بن الناصرمحمد(الصالح عماد الدين)	١٣٤٢- ١٣٤٥م
١٨- شعبان الأول بن الناصرمحمد (الكامل سيف الدين)	١٣٤٥- ١٣٤٦م
١٩- حاجى الأول بن الناصر محمد	١٣٤٦- ١٣٤٧م
٢٠- الحسن بن الناصر محمد (الناصر)	١٣٤٧- ١٣٥١م
٢١- صالح بن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين)	١٣٥١- ١٣٥٤م
الحسن بن الناصر محمد(الناصر) (مرة ثانية)	١٣٥٤-١٣٦١م
٢٢- محمد بن حاجى (المنصور صلاح الدين)	١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٣- شعبان الثانى (الأشرف ناصر الدين)	١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٤- على بن شعبان (المنصور علاء الدين)	١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٥- حاجى الثانى (الصالح صلاح الدين)	١٣٨١- ١٣٨٢م

ملحق رقم (٢) : سلاطين المماليك البرجية

سلاطين المماليك البرجية	فترة السلطنة
٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين)	١٣٨٢- ١٣٩٨م
٢٧- فرج بن برقوق (الناصر)	١٣٩٨- ١٤٠٥م
٢٨- عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥م
فرج بن برقوق (مرة ثانية)	١٤٠٥-١٤١٢م
٢٩- الشيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر)	١٤١٢- ١٤٢١م
٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر)	١٤٢١م
٣١- الظاهر ططر	١٤٢١م
٣٢- محمد بن ططر (الصالح)	١٤٢١- ١٤٢٢م
٣٣- برسباى (الأشرف سيف الدين)	١٤٢٢- ١٤٣٨م
٣٤- يوسف بن برسباي (العزيز جمال الدين)	١٤٣٨م
٣٥- جقمق (الظاهر سيف الدين)	١٤٣٨- ١٤٥٣م
٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين)	١٤٥٣م
٣٧- إينال العلانى (الأشرف سيف الدين)	١٤٥٣- ١٤٦٠م
٣٨- أحمد بن إينال (المؤيد شهاب الدين)	١٤٦٠- ١٤٦١م
٣٩- خشقدم (الظاهر سيف الدين)	١٤٦١- ١٤٦٧م
٤٠- بلباي المؤيدى (الظاهر سيف الدين)	١٤٦٧- ١٤٦٨م
٤١- تمريغا (الظاهر)	١٤٦٨م
٤٢- قايتباي (الأشرف سيف الدين)	١٤٦٨- ١٤٩٥م
٤٣- محمد بن قايتباي (الناصر)	١٤٩٥- ١٤٩٦م
٤٤- قانصوه (الظاهر)	١٤٩٧م
محمد بن قايتباي (ثانى مرة)	١٤٩٧- ١٤٩٨م
٤٥- قانصوه (الأشرفى)	١٤٩٨- ١٥٠٠م
٤٦- جنبلاط (الأشرف)	١٥٠٠- ١٥٠١م
٤٧- طومان باي الأول (العادل)	١٥٠١م
٤٨- قانصوه الغورى	١٥٠١- ١٥١٦م
٤٩- طومان باى الثانى (الأشرف)	١٥١٧م

ملحق رقم (٣) : الحملات الصليبية
تواريخها وأسماؤها ونتائجها

التاريخ / إسم الحملة الصليبية	النتائج
١٠٩٦م حملة الشعب	دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م ٣ حملات صليبية ألمانية	مذابح اليهود دمرها المجريون
١٠٩٦م الحملة الصليبية الأولى	إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م الحملة اللومباردية	دمرها قلج أرسلان
١١٠١ م الحملة النفرسية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٠١ م الحملة الأكيتانية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٤٧م الحملة الصليبية الثانية	حصار دمشق
١١٨٩م الحملة الصليبية الثالثة	حتلال قبرص وعكا
١٢٠١م الحملة الصليبية الرابعة الضالة (ضدالمسيحيين)	نهب القسطنطينية وإنشاء كنيسة وامبراطورية لاتينية فيها
١٢١٧م الحملة الصليبية الخامسة	استعادة الصليب
١٢٢٨م الحملة الصليبية السادسة	استعادة أورشليم سلميا
١٢٤٨م الحملة الصليبية السابعة	أسر لويس التاسع فى المنصورة
١٢٧٠م الحملة الصليبية الثامنة	موت لويس التاسع أمام تونس

ملحق رقم (٤) خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد ان عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم - أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست - لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا

يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السماوات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥- ١٦)

(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

♣♣♣♣♣

المراجـع العربيـة

♣ التحفة الملوكية فى الدولة التركيـة (تاريخ دولـة المماليـك البحريـة فى الفترة من ٦٤٨ – ٧١١ هـ) تأليف بيبرس المنصوري، تحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان. الدار المصرية اللبنانيـة ، القاهرة ١٩٨٧م .

♣ مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ) تـأليف بيبرس المنصوري ، تحقيق د. عبد الحميد صـالح حمـدان . الدار المصـرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٣م .

♣ تـاريخ الحمـلات الصـليبية ، ثلاثـة مجلـدات ، تـأليف السـير سـتيفن رانسـيمان ، ترجمة نورالدين خليل، الإسكندرية ، ١٩٩٨م .

♣ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصـور لابن عبد الظـاهر ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١م.

♣ تاريــخ ابـن الفـرات ، تـأليف ابـن الفـرات ، تحقيـق قسـطنطين زريـق ونجـلاء عزلديــن ،بيروت ، ١٩٣٩م.

♣ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تأليف بدر الدين العيني – تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

♣ العصـر الممـاليكي فـي مصـر والشـام ، تـأليف سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور ، دار النهضـة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

♣ السـلطان المنصـور قـلاوون ، تـأليف حمـزة إسـماعيل الحـداد ، مكتبـة مـدبولي ، القاهرة ١٩٩٨م.

♣ المقريزي ، تقى الدين أحمد بن على : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤م .

♣ اليونيني، قطـــب الدين، أبو الفتح موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان ، حيدر أباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م .

♣ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: (البداية والنهاية) ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ .

♣ الهمذانى ، رشيد الدين بن فضل الله : (جامع التواريخ فى تاريخ المغول) ، تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠م .

♣♣♣♣♣

المراجــع الأجنبيــة

♣ Sir Steven Runciman, *A History of the Crusades,* Penguin Books, Cambridge University Press, London, 1991.

♣ Muir, William. *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt AD 1260-1517*. Amsterdam: Oriental Press, 1968.

♣ Amitai-Preiss, Reuven. *The Mamluk-Ilkhanid War*, 1998

♣ Marshall, Robert. *Storm from the East*. London: BBC Books, 1993.

♣ Robinson, John. *Dungeon, Fire & Sword*. New York: M Evans & Compnay, 1991.

♣ Saunders, JJ. *A History of Medieval Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd, 1965.

♣ *Wesam Al-Dowaik,* Qalawun, The World's Second Most Beautiful Mausoleum.

♣♣♣♣♣♣

المحتويات